

جان بول سارتر

تاريخ حياة طاغية

ترجمة

د. عبد المنعم الحفني

هو أول سيناريو كتبه جان بول سارتر، وكان وقتئذ من المتحمسين للسينما، واقتبس منها الكثير في مسرحياته، فلما طلبوا منه الكتابة لها دفع إليهم بهذا السيناريو الذي يعد بياناً عالياً لفلسفته في الطغيان والسياسة والحكم ووضعية الإنسان ..

مكتبة مدبولي

سارتر، جان بول

تاريخ حياة طاغية

تأليف جان بول سارتر

ترجمة د. عبد المنعم الحفني

ط ١. - القاهرة : مكتبة مدبولي، ٢٠١٣م.

٢٢٤ ص ١٤,٥ × ٢١,٥ سم.

تدمك : 3-970-208-977-978

١ - الفلسفة الغربية

أ- الحفني، عبد المنعم (مترجم)

ب- العنوان

ديوى / ١٩٠

رقم الإيداع : ٢٠٨٨٠ / ٢٠١٢

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

ت : ٢٥٧٥٦٤٢١ - فاكس : ٢٥٧٥٢٨٥٤

الموقع الإلكتروني : www.madboulybooks.com

البريد الإلكتروني : info@madboulybook.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف

ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

جان بول سارتر

تاريخ حياة طاغية

ترجمة / د. عبد المنعم الحفني

مكتبة مدبولي

٢٠١٣

L' ENGRANAGE

هو أول سيناريو كتبه جان بول سارتر، وكان وقتئذ من المتحمسين للسينما، واقتبس منها الكثير في مسرحياته، فلما طلبوا إليه الكتابة لها دفع إليهم بهذا السيناريو الذي يعد بياناً عالياً لفلسفته في الطغيان والسياسة والحكم ووضعية الإنسان..

الثورة في المدينة...

تقوم مؤسسة البترول الضخمة بآبارها وخزاناتها ومعامل تكريرها ومحركاتها على أطراف المدينة. المؤسسة كلها يخيم عليها السكون وقد توقفت بها الحركة تماماً. يتوسط المدينة والمؤسسة حي العمال. وهو خال الآن تماماً، وأغلقت أبواب محاله العامة. وهناك مصباح غاز، تدلى منه تمثالي كمشنوق، علقت على صدره لوحة كتب عليها بحروف بارزة كبيرة:

الطاغية جون أجيرا

أحد المطابخ في بيت مه بيوت العمال...

امرأة عجوز تجلس على المقعد المجاور للفرن، تنتظر في سهوم وقلق إلى الفضاء. وأمام النافذة تقف امرأة شابة، وجهها يبدو عليه الإنهاك، تنظف سترة رجل وتتطلع إلى التمثال المشنوق من زجاج النافذة.

تسمع من بعيد أصوات انفجارات وبنادق رشاشة. تسقط المرأة الشابة الفرشاة من يدها، وتقترب من النافذة أكثر، مصغية بينما تنهض العجوز، وتقول في ضجر:

- لا يزالون يطلقون النار. ترى متى ينتهون؟
- وتجيبها المرأة الشابة مشيرة إلى التمثال المشنوق:
- عندما يشنقونه حقيقة.

أهم شوارع المدينة...

أحد الشوارع التجارية العريضة، وفي آخره بناية ضخمة هي القصر الحكومي. الشارع لا أحد فيه، ومعظم المحلات قد أغلقت أبوابها. وفي وسط الشارع توجد عربة ترام قلبها الثوار. وبجوار الحائط تمددت جثة أحد العمال، يرتدي قميصًا أزرق، وقد عقد ساعديه على صدره عندما فاجأه الموت، وأمامه توجد بندقيّة.

تتطلق رصاصة ثم يسود السكون، وبعد فترة يخرج أحد الثوار من أحد الأبواب، ممسكًا ببندقية، ويعدو محتميًا بالحائط ومتجهًا إلى القصر الحكومي، والرصاص ينهمر عليه من البنادق الرشاشة، فيلقي بنفسه على الأرض خلف الجثة. وحينئذ يتوقف إطلاق النار، فينهض الرجل، ويأخذ ببندقية الميت، ويجري من جديد حتى يدخل إحدى العمارات.

ساحة إحدى العمارات...

يتجمعر بها نحو عشرين من الثوار وقد تسلحوا تمامًا، وفيهم بعض النساء، يقترب رئيسهم من الثائر الذي قابلناه في المشهد السابق ويسأله..

- ما هي أخبارك؟

- احتلنا مبنى التليفونات، لكنهم ما يزالون يحتفظون

بثكنة يابول. أما الطاغية أجيرا فلم يبرح قصره.

ومن بعيد يسمع أزيز البنادق الرشاشة..

غرفة القصر الحكومي

غرفة كبيرة عادية، بها منضدة مغطاة بالقطيفة، عليها صينية اصطفت عليها الكؤوس، ويجلس على رأسها مائير وزير الداخلية، قصير القامة أصلع، وقد تملكه الذعر، بينما وقف تسعة من كبار رجال الدولة في ملابسهم العسكرية والمدنية، معتدلي القامة رابطين ساكنين، وإن كان التعب واضحا على وجوههم، ولحاهم طالت، وتهذلت ملابسهم، ويبدو عليهم أنهم لم يناموا ليلتهم التي مضت.

لا يضيئ الغرفة إلا نور القمر الذي أخذ يطلع على المدينة المذعورة. وفجأة تنطلق رصاصات قريبة جدًا من الغرفة،

فتطّيح إحداها بزجاج النافذة وتستقر في السقف، وينهض ريباز وزير الخارجية، وهو ضخم ثقيل الحركة بارز العظام ذو شارب غليظ غير منظم، ويتجه بهدوء نحو النافذة المكسورة يرقب منها ما يجري بالخارج.

يفتح باب الغرفة ويدخل ضابط مبهور الأنفاس، فيلتفت الكل إليه، ويقوم وزير الداخلية مانير من مقعده، لكن الضابط يقول لهم معلناً:

- إنهم يقتربون. يقومون بهجومهم الأخير.

ويستمع الجميع إليه ولا يظهر على وجوههم ما يدور في نفوسهم، كما لو كانوا يخشون من بعضهم إظهار حقيقة مشاعرهم، ثم يقول ريباز ببساطة:

- سأذهب وأبلغه.

غرفة نوم جاه آجيدا...

غرفة صغيرة بسيطة بساطة شديدة، ولا تحتوي إلا على سرير وكرسيين ومنضدة صغيرة ومقعد.

نرى جان واقفاً أمام المرأة، في الأربعين من عمره، ضخم الجثة عريض المنكبين، إحدى ذراعيه مصابة بالشلل، يرتدي

تاريخ حياة طاعية

حذاء أسود وسروالاً عسكرياً وقميصاً غامقاً. خادمه يرتدي ملابس سوداء، ويحاول أن يربط له ربطة عنقه، فيدق الباب..
جان : ادخل!

يدخل ريباز وزير الخارجية، فيومئ جان إلى الخادم بالذهاب،
ويغادر الأخير الغرفة، فيغلق ريباز الباب وراءه ويقول:
إنه الهجوم الأخير!

جان : (بهدهوء) حسن... (ويتجه إلى النافذة ويتطلع إلى
الخارج) إذن فقد انتهينا!

ريباز : ربما، لكنهم لن ينتصروا بسهولة، ف وراء كل نافذة
مدفع رشاش.

جان : (يعود ويقف في مواجهة ريباز) كلف كرافر أن لا
يطلق النار!

ريباز : كلا، لن أفعل.

جان : ماذا؟

ريباز : لن أفعل. سينالون رأسي على أي حال، إذن
فليدفعوا ثمنه!

جان : لكن المهاجمين من عمال البترول!

ريباز : (يهز كتفيه) وماذا في ذلك؟

جان : إنهم أحسن ما في الدولة، ويجب أن لا نقتلهم!
(ريباز لا يتحرك فتتغير لهجة جان) إني أمرك. أتفهم؟
أمرك. (يظل ريباز يحدق في جان لحظة ثم يخفض رأسه.
جان يتجه إلى الجرس المثبت فوق رأس السرير ويضغط
عليه، ويقول لريباز):
- اذهب.

يخرج ريباز في اللحظة التي يدخل فيها الخادم. جان يتطلع
من النافذة، ثم يهتف أمرًا دون أن يستكير..
- ويسكي..

الخادم يحضر قدحًا يفرغه جان دفعة واحدة ثم يأمره قائلاً:
- سترة الاحتفالات.

الخادم يذهب إلى دولا ب ملابس يفتحه بينما جان ينظر إليه
من ظهره ويقول له دون اكتراث:
- لقد انتهيت، وسأسلمك إلى من سيخلفني.

قاعة القصر الحكومي...

ما زال كبار رجال الدولة في الغرفة، ولكنهم الآن أمام النوافذ وقد أطبق السكون، وفجأة تتدلع ضجة هائلة من تحت النوافذ، ثم يعود السكون من جديد حتى يقطعه ريباز قائلاً:

- لقد دخلوا.

يفتح أحد الأبواب ويدخل الخادم وينحني ويقول:

- معاليه يرجوكم الدخول.

ملكب جان آجيرا الطاغية...

الغرفة واسعة ومكتبها ضخم فخم مغطى بالكتب والملفات. وعلى طرفه صينية عليها زجاجة ويسكي وزجاجة سيفون وبعض الكؤوس. على الحوائط تمتد رفوف الكتب وقد امتلأت بالكتب والملفات. وهنا وهناك توجد مقاعد مريحة وإحدى الأرائك العريضة.

جان جالس خلف مكتبه وقد ارتدى ثياب الاحتفالات الرسمية. يدخل عليه كبار رجال الدولة بخطوات مترددة ويقتربون من جان الذي ينهض ويتطلع إليهم مقتطاً:

- أعتقد أن نصفكم على الأقل خونة. ترى من يكون الخائن فيكم؟ لن تمضي ربع ساعة حتى أعرف الحقيقة...

يقف الكبراء أمام المكتب على هيئة نصف دائرة. جان يتطلع إليهم في قسوة، ويمشي ببطء أمامهم كأنه يستعرضهم، ويشير إلى بعضهم ويقول:

- أنت.. مؤكد، إنما.. غير مؤكد لكن من المحتمل..
أما أنت فسحتك..

يمر جان أمام ريباز وعندئذ يقول..

- أنت.. طبعاً لا، لا يمكن أن تكون خائناً.

يبتسم جان لداريو الذي يقف إلى جوار ريباز، ويضع يده على كتفه.

داريو يرد على ابتسامته بابتسامة شاحبة.

- وأنت طبعاً لا يمكن أن تكون خائناً.. كنت أحبك دائماً.

يسمع صوت خطوات وصياح خارج الغرفة فيعود جان إلى مكتبه ويقف خلفه... يفتح الباب ويزدحم بالنوار المسلحين. ريباز يخرج مسدسه ويطلق النار ليسقط أحد النوار، ويدوي

تاريخ حياة طاعية

طلق آخر يسقط على أثره ريباز. لكن جان يسرع بين الثوار ورجاله وهو يهتف..

- لا يطلق أحدكم النار... ادخلوا.

يتدافع الثوار مترددين.. ثم ينسل أحد أعوان جان منضمًا إلى جمهور الثوار، ويتبعه بقية الأعوان الواحد بعد الآخر متحاشين نظرات جان الذي يتطلع إليهم ساخرًا:

- كلكم؟ عال! عال جدًا!

يبقى داريو حتى الآخر ثم ينضم إليهم.

- وأنت أيضًا يا داريو؟

لا يرد داريو.

جان : كنت أحسبك تحبني..

داريو : أجل، كنت أحبك.. لكن ما الفائدة؟

يهز جان كتفيه ولا يتكلم، يواجه جمهور الثائرين وحيدًا. ما يزالون يخشونه ويرهبونه. فجأة يندفع ثائر من وسطهم ويصفع جان بكل قوته فيرد عليه جان، عندئذ يلقي الثائرون أنفسهم على جان ويطرحوه أرضًا، فيدوي صوت:

- قفوا!

يدخل فرانسوا وسوزان إلى القاعة، ويشقان طريقهما وسط

الثائرين ويتجهان إلى جان..

- قفوا! هذا الرجل أسيرنا فلا يمسه أحد.

يستدير جان إلى فرانسوا، ويحدق الرجلان في بعضهما.
سوزان تقف إلى جوار فرانسوا، وتتنظر إلى جان نظرات كلها
كراهية جان لا يراها.

جان : وصلت يا فرانسوا.. كنت أعتقد أنني سأراك
هنا، نجحت.

فرانسوا : (يتطلع إلى جان بفضول وحدة) لم ينته كل
شيء... لكننا سننالك.

جان : (بصوت ودود) ليس الصعب أن تقتل إنساناً...
الصعب كل ما هو غير القتل. ستدرك ذلك
بنفسك. مضى زمن طويل منذ أن رأيته آخر
مرة. كان ذلك منذ خمس سنوات. وقتها لم تكن
قد انقلبت عليّ...

سوزان : (وقد تقدم إليه، بغضب ووعيد) وأنا يا جان؟
أتذكر آخر مرة لقيتني فيها؟

جان : (يتجاهلها ويقول لفرانسوا) كنت أعرف أين
تختبئ، وكان في وسعي اعتقالك!

فرانسوا : ولماذا لم تفعل؟

جان : لأنني لو فعلت لأرقت دماً لا داعي لإراقته.

سوزان : (مقاطعة) سنكون أقل كرمًا منك فدمك لا

يخيفنا.. سنجعلك تدفع الثمن! (يستمر جان في

تجاهلها؛ تقول بغضب) هل تسمعي؟ لا تجرو

على التطلع في وجهي! إنني أخيفك!

جان : (مستديرًا إلى خادمه هاتفاً) ويسكي...

الخادم لا يتحرك ويبتسم في احتقار. جان يتجه إلى المنضدة

ويسكب لنفسه كأسًا ويشربه، وهنا يكون صمته إزاء سوزان

واحتقاره لشانها قد استنزف صبرها، وأتعبها...

سوزان : (زاعقة) أجب.. ألا تريد؟ لا تريد أن تجيب؟

سأجعلك ترى وتحس وجودي.. خذ..

تبصق في وجهه. لا يتفادى جان البصقة ولا

يمسح وجهه ويظل يشرب كأسه ويسأل

فرانسوا...

جان : ستقتلوني؟

فرانسوا : كلا.. هذا ما تريده وتتمناه. سنحاكمك...

جان : ومن سيحاكمني؟

- فرانسوا : (مشيراً بإصبعه في دائرة) كلنا...
جان : وبأي قانون؟
فرانسوا : بقانوننا.
جان : إذن فلن أَدافع عن نفسي...حتى تغتالوني
اغتيالاً. (صمت) كم مات منكم؟
فرانسوا : كثيرون.
جان : مثتان؟
فرانسوا : أكثر.
جان : لكي تقضوا عليّ! هذا كثير!
سوزان : (زاعقة) وستدفع ثمن موتهم!
فرانسوا : ليس هذا بكثير من أجل سحق طغيانك القذر.
جان : (يهز كتفيه وقد تعب وأصابه السأم) ستتفوق
عليّ في طغيانك، لأن أحكامك مطلقة أكثر مما
يجب، لذلك ستكون مخيفاً رهيباً.

الحكمة...

غرفة أقيمت ارتجالاً في صالة الاحتفالات بالقصر، عبارة
عن منصبتين قد وضعتا بعضهما إلى جوار بعض من

تاريخ حياة طاغية

الطرفين، وخلفهما في مواجهة الجمهور يجلس عشرون شخصاً: ست نساء وأربعة عشر رجلاً، هم هيئة المحلفين. أما الرجال فمنهم أربعة عرفناهم ونراهم الآن في ملابسهم الرسمية وقد تحلوا بأوسمتهم، وثمانية من العمال يرتدون القمصان الزرقاء أو السترات الجلدية، والاثنان الباقيان يبدو عليهما أنهما من البورجوازية الصغيرة.

وعلى المنضدة المستطيلة نرى أسلحة المحلفين الثوار، وعلى ظهر أحد الكراسي علق أحدهم سترته..

أما قاعة المحكمة فتمتلئ بالعديد من الناس من مهن وطبقات مختلفة، منهم الجالس، ومنهم الواقف مستنداً إلى الحائط، ومنهم من يجلس على حواف النوافذ.

في الصف الأول من مقاعد المتفرجين نرى سوزان ومانيان وداريو..

وعلى يمين المسرح وتحت النوافذ يجلس جان على كرسي مديراً ظهره للمحلفين كناية عن أنه لا يهتم بمحاكمته. وعلى حافة النافذة التي يجلس تحتها جان، يجلس عامل وقد تدلى حذاؤه حتى صار في مستوى عيني جان، ونرى نعل أحد الحذائين متقوياً.

تتركز أنظار جان على قدم العامل ثم تصعد إلى وجهه فيبادلته العامل النظرات، بلا حقد.

وبين المنصة المنصوبة ومقاعد المتفرجين مكان خالٍ، يحده من ناحية المنصة أربعة من الثوار وقد جلسوا مسلحين. وفي الخلاء الموجود بين الاثنين يقف فرانسوا في الوسط يتكلم بحرارة إلى المحلفين ثم إلى الجمهور..

فرانسوا : علينا أن لا نعرف الرحمة. إنكم تعرفون هذا الرجل منذ خمسة عشر عامًا، وأنتم أنفسكم اشتركتم في الثورة الأولى وحاربتم، وحملتموه إلى السلطة منذ سبع سنوات. كنتم أيامها ترون فيه أنسب الناس لحكمكم، ولتحقيق الديمقراطية الاشتراكية التي كنا نريدها.. لكنه خان بقتكم فيه، خان بقتنا فيه، لذلك سنحاكمه اليوم وسنطلب إليه أن يسدد الدين ويوفي الحساب. وسوف أقوم أنا بتمثيل الاتهام الذي سنوجهه إليه.

يصفق الجمهور ويهتف، لكن فرانسوا يطلب الصمت بإشارة من يده، ويتجه إلى جان..

فرانسوا : اختر لك محامياً.

لكن جان لا يجيب...

فرانسوا : هل تسمعي؟ قلت لك اختر لك محامياً.

لا يكاد جان يلتفت إليه، ويهز كتفيه ثم يعود نظراته لتأمل
قدمي العامل الشاب...

فرانسوا : إذن فسنعين نحن لك محامياً.

لا يكاد جان يلتفت إليه، ويهز كتفيه ثم تعود نظراته لتأمل
قدمي العامل الشاب...

فرانسوا : إذن فسنعين نحن لك محامياً.

يتجه فرانسوا إلى الصالة كمن يبحث عن أحد، وتعر
نظراته على ماتير وزير العدل الذي يجلس في الصف الثاني
من مقاعد المتفرجين محاولاً أن يتوه بينهم، لكن فرانسوا يمد
يده إليه.

فرانسوا : أنت...

يقفز ماتير من كرسيه بقلق بالغ...

ماتير : لكني لا أصلح للدفاع عنه؛ كل أخطائه بشعة
أراها بوضوح... لذلك لا أستطيع الدفاع عنه.

فرانسوا : (في صلف) لكنك محام، أليس كذلك؟ إذن

ستدافع عنه. هيا أقبل.

ينهض ماتير في حرج شديد ويقترّب من المسرح ويفتح
فمه محاولاً الاحتجاج من جديد، لكن فرانسوا يعود إلى أمره..
فرانسوا : هيا اقترب.

يمتثل ماتير ويقف في المكان الخالي بين المنضدة
والمقربين..

ماتير : فليكن... إن موكلي مذنب.

يدير جان رأسه ويتطلع إلى ماتير، ويقول بصوت مفتعل..
جان : ها كم أفذركم جميعاً!

ماتير يضم شفّتيه كالمرأة العجوز، ويدير له ظهره، ثم
يقترّب من فرانسوا ويوجه إليه وإلى المحلفين السؤال..
ماتير : وبماذا تتهمونه؟

فرانسوا : (صائخاً) ألا تعرف؟ (ثم يستدير إلى
الجمهور) قولوا له بماذا نتهمه؟

الجمهور غاضب أشد الغضب، يكاد يفتك بجان. وتميز في
صيحات الجماهير ثلاث كلمات...
البترول... المجرم... الطاغية.

تاريخ حياة طاغية

ومن الصالة ينهض رجل ويقف على كرسي ويصرخ..
الرجل : وجه الثورة لمصلحته، واستبدل زعماء
الحزب برجال من أعوانه.

رجل آخر : لقد قضى على حرية الصحافة، واغتال
لوسيان دريلتش.

فلاح : (من الصف الثاني ملوحاً بيدين محروقتين
مشوهتين) لقد حرق قريتي.
فلاحة : ونفى زوجي.

تجتاح الصالة زمجرة قوية فيحاول فرانسوا تهدئة
ال جماهير بلا طائل وعندئذ ينهض عامل كان يجلس في
الصف الأول، ويستدير إلى الصالة ويمد إلى الجماهير يديه
صارخاً بقوة أسكتت الباقيين..

العامل : كل هذا لا يهم. المهم أنه باع حقوق البترول
للأجانب. هذه أكبر جرائمه!

ماتير : (محتجاً) غير صحيح! غير صحيح!
العامل : (إلى ماتير بغضب قاتل) تكذبني يا مغفل!
(ويتوجه إليه، لكن أحد الثوار من الحراس

يمنعه. يشير ماتير بيديه مطالباً أن يستمعوا
إليه...) (

ماتير : لم تبع شيئاً. الحكومة السابقة، حكومة
الوصي، هي التي باعت الحقوق للأجانب.

العامل : (وما يزال الحارس يمسكه) ثم ماذا؟

ماتير : أعطى الوصي امتياز استغلال جميع ينابيع
البترول عام ١٨٩٨م لشركة أجنبية لمدة مائة
وعشرين سنة. ولما جئنا إلى الحكم كان
الرأسماليون الأجانب يمتلكون بترولنا
ويستغلون حقولنا منه منذ ثلاثين سنة.

العامل : (صارخاً) ثم ماذا أيها القنصل؟ لماذا أقمنا
سيدك على الحكم؟ لماذا نصبناه حاكماً؟ هل
انتخبناه رئيساً ليتلهم؟ (ثم يستدير إلى
الجماهير) ما هي ثروتنا الكبرى يا أولاد؟

وبصوت واحد تجيبه الصالة..

الجماهير : البترول!

تاريخ حياة طاغية

العامل : وما هي الصناعة التي يستغلون فيها العمال
أسوأ استغلال؟

الجماهير : البترول!

العامل : ومن الذي قام بالثورة الأولى؟ من الذي
خاض للحرب ليوصل هذا الطاغية إلى
الحكم؟ من الذي صنع من هذا الرجل زعيماً؟
الجماهير : أصحاب البترول... أصحاب البترول...

العامل : (إلى جان) هل تسمع؟ وها هم أصحاب
البترول قد قدموا اليوم يناقشونك الحساب.
لماذا لم تؤمم صناعة البترول التي كان يجب
أن تؤممها؟ لماذا ساعدت أسيادك الأجانب
على إبطال الإضرابات وتقريق المضربين؟

يستدير العامل إلى الجماهير التي تطلق صيحات استهجان
ويقول..

العامل : الموت هو ما يستحق. هو ومحاميه.

يتقدم فرانسوا نحو الجماهير رافع اليدين

صائحًا..

فرانسوا : سكوت. (صمت، ثم يوجه كلامه إلى العامل)
أرجوك عد إلى مكانك. (يطيع العامل)
فيستدير فرانسوا المحامي هل فهمت الآن
بماذا نتهمه؟ هناك ثلاث تهمة: الأولى:
الاعتداء على الحريات الأساسية وخنقها
واغتيال لوسيان دريلتش رئيس تحرير جريدة
"الضياء". والثانية: اتباع سياسة تصنيع
الزراعة، وهي سياسة لم تكن مستعدين لها
وسابقة على أوانها، مما استتبع ثورة الفلاحين
عليه، لكنه نفى الثائرين، وكسان نفية لهم
بالجملة. والثالثة: أنه تأمر مع الأجنبي على
سرقة بترولنا وإيقاع العمال أصحابه في حالة
مزرية لا تطاق.

ماتير : وأين الشهود؟

فرانسوا : كل الناس هنا شهود. اختر من تشاء من بين

تاريخ حياة طاغية

الموجودين بالصالة وسيشهد ضده.

ماتير : إذن أين شهود الدفاع؟

فرانسوا : عليك أن تجدهم بنفسك.

وطوال هذا المشهد يظل جان بلا حراك، مديراً ظهره إلى المحلفين، مثبتاً أنظاره على حذائي العامل الشاب الجالس على حافة النافذة. ولكنه يرفع رأسه قليلاً عندما يقول فرانسوا..

فرانسوا : شاهدي الأول هو داريو. تعال يا داريو.

ينهض داريو، ويقف مواجهاً الجمهور. فرانسوا يتجه إليه ويستجوبه..

فرانسوا : قل لنا يا داريو: أين مكان صناعة البترول عندما بين صناعته عالمياً؟

داريو : بلدنا هو البلد الثالث المنتج له، إذ تبلغ قيمة ما نننتجه عشرين مليون جنيه.

فرانسوا : متى وكيف اشترت الشركة الأجنبية امتياز استخراج واستثماره عندما؟

داريو : في عام ١٨٩٨م، ودفعت لذلك مبلغ خمسين مليون جنيه على دفعتين. لكن عندما وصل

جان أجيرا إلى الحكم كانت هذه الأموال قد انتهت من زمن، أنفقها الوصي عن آخرها، ولم يستقد بلدنا من البترول شيئاً، فكل سنة يضيع منا مبلغ عشرون مليون جنيه من أرباح البترول التي تخصصنا، وتذهب إلى جيوب الأجانب، بينما يتضور عمالنا جوعاً.

فرانسوا : (إلى الجماهير) إن أسباب المجاعة التي نعانيها من ثلاث سنوات سببها نقص الإنتاج الزراعي وعدم كفايته، وعدم وجود ما يكفينا من عملات صعبة. (إلى داريو) قل لنا يا داريو: ما هي السياسة التي اتبعتها أجيرا لعلاج هذه الحال؟

داريو : حاول علاج تلك المشكلات باتباع سياسة تصنيع الزراعة، وجعلها آلية، وتشغيل الجرارات، واستخدام الكيماويات في التسميد، وتعميم الاستثمار التعاوني، وفرض الضرائب

تاريخ حياة طاعية

على المحاصيل. إلا أن الفلاحين عادوا هذه
الإجراءات، فأرسلني أجيرا مع لوسيان دريلتش
إلى القرى لنتبين أسباب ذلك، فحذرنا من...

شهادة داريو عن الفترة السابقة على الثورة بثلاث سنوات مكتب جان أجيرا في القصر الحكومي...

جان يجلس إلى مكتبه يكتب. يدخل عليه خادمه الخاص
يسبق داريو ولوسيان. يسير الاثنان دون أن يتكلما، ويقطعان
الحجرة الطويلة، حتى يتوقفا أمام مكتب أجيرا الذي يضع
قلمه من يده ويرفع رأسه...

جان : ماذا؟

لوسيان : هذا مستحيل. الفلاحون لم يستعدوا بعد لقبول
هذه الإصلاحات.

(جان لا يهتز)..

داريو : قطعنا عشرة آلاف كيلومتر، وزرنا كل
القرى، واستجوبنا مئات الناس. اسمع يا جان،
إن فلاحينا أكثر فلاحى أوروبا تأخرًا ورجعية.
جان : وبعد؟

داريو : سيحطمون الجرارات، ويلقون بالسماذ،
ويحرقون المحاصيل، إن لم يشنقوا أيضًا
مهندسينا الزراعيين. كي تعمم إصلاحاتك
هذه يلزمك عشرين سنة تعلم فيها هؤلاء
الناس أولاً، وتدعو فيها إلى مشاريعك.
جان : وأين تقريركما؟

يسرع داريو فيمد إليه يده بالملف الذي كان يضعه تحت
إبطه، جان يضعه على المكتب دون أن ينظر فيه..
جان : أشكركما. سأفعل ما يجب في حدود الممكن.
داريو : (مستعظفاً) جان، لا تستمر؛ إنهم غير
مستعدين. لا تستمر يا جان.
جان : لكني أعرفهم خيراً منك؛ ولدت بينهم.
يحاول داريو مناقشته لكن جان يسكته بإشارة من يده.
جان : أشكرك.

يتردد داريو لحظة ثم يواجه عيني جان فيترجع، ويتدخل
لوسيان الذي لم يكن قد تحرك بعد..
لوسيان : أما أنا فسأبقى. عندي ما أحذرك به. لن
تستطيع يا جان أن تصرفني من حجرتك

تاريخ حياة طاغية

كأني خادم عندك. (إلى داريو) اذهب أنت يا
داريو، وانتظر بالخارج.

صالة الانتظار..

يجلس داريو وراء باب المكتب، وتصل إليه أصدااء
أصوات المتناقشين بالداخل، فينهض ويتجه إلى النافذة ينظر
منها مقطبًا إلى الشارع. لكن الأصوات الصادرة من المكتب
تعنف، ثم فجأة يخرج لوسيان ويتجه إلى داريو..
لوسيان : هيا يا داريو. إنه طاغية لم يعد يستمع إلى كلام
أحد.

غرفة المحكمة...

يتابع داريو الإدلاء بشهادته فيكرر كلام لوسيان...
داريو : وتم له الأمر وأصبح طاغية، ديكتاتور. لم يعد
يستمع إلى أحد. نفذ مشروعه ووقع ما تتبأناه
وثار الفلاحون في كل مكان، محطمين
الدفعات الأولى من الجرارات، وتدخلت
الشرطة ثم الجيش، ولم يتراجع أجيرا. وهكذا

صارت الإجراءات القمع سمات رهيبة كانت
نتائجها أن دمرت خمس عشرة قرية تمامًا،
وقبض على سبعة عشر ألفاً من الأهالي،
وقتل مائة وسبعة وعشرين.

ترتفع همسات الجماهير أثناء هذا الكلام، وينهض فلاح
من الصف الثاني محترق اليدين زاعقاً..

الفلاح : وأحرق قرية ماينيك التي ولد فيها. أنا أيضاً
من قرية ماينيك، وعرفته منذ كان صبيًا،
وأقول لكم إنه كان صبيًا شريرًا.

المحامي : أحتج..

الفلاح : (مقاطعاً) كان دائماً متآمراً، وكان يحب
الزعامة، حتى قبل أن تقع له الحادثة التي
كسرت فيها ذراعه. كانت هذه الحادثة سبباً
في أن أحداً لم يكن يثق معه فيما كان يفعل،
تركوه وشأنه، واستغل هو الحادث لمصلحته،
وبسط نفوذه على الجميع، حتى لقبوه
بالمسعور. وعندئذ أقسم أن ينتقم... (يتقدم

تاريخ حياة طاغية

الفلاح إلى المحلفين ماذا يديه المشوهتين
وكانت إحداها تنقصها إصبعان): انظروا.
نجح وانتصر.. وأي نصر! كنت في ماينيك
عندما أشعل النار فيها.

تغضب الجماهير ولكن المحامي يزعم بكل قوته..

ماتير : أحتج! إنني أطلب من المحلفين رد هذا
الشاهد. نحن هنا لنحاكم جان آجيرا على
أعماله السياسية، فهل منكم من يجرؤ على
التصريح بأن آجيرا قد أحرق خمس عشرة
قرية ليرضي حقه الشخصي؟

سوزان : (ناهضة بعنف فجائي) ولم لا؟ هل تعلم من
أي طينة هو؟ أنت لم تعرفه لأنك كنت من
خدمه تزحف على وجهك أمامه.. (إلى
المحلفين) أجل، كانت ذراعه سبب حقه. كان
حقه ينبع منها. وكانت شقاءه وعاره. إنني
أعرف ذلك وأعلمه. أعرفه لأنني عرفت جان
آجيرا، عرفته لأنني كنت عشيقته، بقيت
عشيقته عشر سنوات، أجل عشيقته! أو

بالأحرى مربيته!

شهادة سوزان عن فترة ما قبل سبع سنوات...

غرفة طعام سوزان وجان. حجرة صغيرة فقيرة عارية.
جان جالساً إلى منضدة مغطاة بمشمع، صامتاً متجهماً.
سوزان واقفة إلى جواره تقطع له اللحم في طبق وتضعه أمامه،
لكنه يظل صامتاً، ولا يشكرها، ثم يبدأ يتناول قطع اللحم
بشوكتة بيده اليسرى. تصب سوزان النبيذ في كأسه وكلها حنان
وحب له، لكنه يظل صامتاً وعيناه لا تبرحان طبقه.
وفي وسط هذا المشهد نسمع صوت سوزان مخاطباً
المحلفين:

كان بحاجة إلى مربية، خادمة.. وذات يوم...

نعود إلى المشهد لنرى جان وسوزان يسيران في الشارع
بعض المسير ثم يفترقان ليركض جان وراء الترام الذي بدأ
يتحرك ويحاول أن يتعلق به وهو ماضٍ، ولكنه يفشل بسبب
نراعه الواحدة، ويسقط متدحرجاً على الأرض فتهرع إليه
سوزان. لكن رجلين من المارة يسبقاها إليه، فيرد جان
مساعدهما بغضب..

جان : أرجوكما. لا شيء لا شيء. شكراً.

تاريخ حياة طاغية

وينهض جان وحده نافضًا الغبار الذي لطخ سترته بينما سوزان تتطلع إليه قلقة، ويبدو على الرجلين اللذين حاولا مساعدته القلق والدهشة بسبب لهجة جان في شكرهما، فيقول أحدهما للآخر متعمدًا أن يسمعه جان..

الرجل : الواحد لما يكون عاجزًا لا يجب أن يتعلق في الترام.

لكن جان يأخذ ذراع سوزان ويسحبها بعيدًا مكفهر الوجه..

غرفة المحكمة...

تتقدم سوزان من الحاجز أثناء سردها للرواية السابقة..

سوزان : كان يكره كل رجل بذراعين..

المحامي : محتمل، لكننا هنا لمحاكمة الأعمال لا لمحاكمة الرجل.

سوزان : أما أنا فأطالبكم أيها الرفاق بمحاكمة الرجل. لقد أراد أن يحكم ويسود ويسيطر لأنه عاجز، ولأنه كان عاجزًا كره الرجال وسفك دمهم.

المحامي : (ناهضًا ومحتجًا) إنني أحتج وأصر أن تكون

المحاكمة لمحاكمة الأعمال لا لمحاكمة الرجل.

سوزان : (مصوبة إليه نظرات بالغة التهديد) حاذر على رأسك أيها المحامي.

يتراجع المحامي أمام نظراتها. ويسود الغرفة صمت مطبق..

فرانسوا : لكم أن تقررُوا.

داريو : (ناهضًا - إلى المحلفين) أيها الرفاق : لا يمكن أن تحاكموه هكذا.

سوزان : أنت! تدافع عنه يا داريو؟

داريو : أنا لا أدافع عنه. لكنك لو استمررت بهذه الطريقة ستصبحين موضع سخرية وتندر، وتعطينه كل العذر. ثم إن المسألة ليست مسألة حكم قضائي يصدر ولكنها مسألة اغتيال.

مانيان : (في مقعده) كفى شجارًا يا داريو. الذي تحاكمونه رجل أحببناه ورفعناه إلى الحكم، لكنه كذب علينا وخاننا.

تاريخ حياة طاعية

يتشاور المحلفون ويتناقشون بأصوات منخفضة وينهض بعضهم ليحدث البعض الآخر، ثم يعود الجميع إلى مقاعدهم، وحينئذ يسألهم فرانسوا..

فرانسوا : ماذا قررتم؟

تنهض إحدى المحلفات..

المحلفة : أن نحاكم الأعمال والرجل.

فرانسوا : إذن ستطول المحاكمة.

المحلفة : عندنا وقت.

وإذ تسمع فرانسوا ذلك تنتظر إلى المحامي بانتصار ثم تلتفت إلى المحلفين..

سوزان : لقد فهمتم الموقف حقيقة. تريدون محاكمة

الرجل على حياته كلها. ولما كان يجب أن

نعرف كل ما نريد معرفته فعليكم أن تقررُوا

الساعة ما إذا كانت عمليات النفي والترحيل

التي قام بها ضرورة كان لا بد أن يقوم بها أم

أنها كانت جريمة. لكن قبل ذلك نريد الآن حالاً

أن نعرف ما الذي كان يفعله عندما كان الجنود

يحرقون القرى وينهبونها؟

صوت من الجماهير: أنا أعرف.. أنا أعرف..

تلقت سوزان فتى خادم جان آجيرا وقد نهض من كرسيه وسط الجماهير، واتجهت إليه كل الأنظار وهو يستطرد..

الخادم : كان يضحك، كان مخموراً وكان يضحك.

سوزان : (ضاحكة باقتضاب) كنت واقفة من ذلك!

تعود سوزان لتجلس راضية، بينما يستدير فرانسوا إلى الخادم قائلاً..

فرانسوا : تقدم.

يتقدم الخادم ويقف بين فرانسوا وجان..

فرانسوا : ما اسمك؟

الخادم : كارل بومبياني. كنت خادم صاحب الفخا...

جان آجيرا، وكنت قبلاً خادم كريفالي رئيس

الوزراء. (يشير إلى جان) وعندما تسلم هذا

الحكم جاء واحتل مسكن كريفالي فوجدني

هناك واستبقاني...

شهادة الخادم عه فترة ما قبل تسع سنوات...

القصر الحكومي. صف طويل من الحجرات ذات الأبواب المفتوحة والنوافذ الزجاجية المكسورة. نرى جان في أول هذه الحجرات وهي ردهة مدخل القصر، في ثياب البورجوزية.. ثياب العمال يوم الأحد، سترة سوداء ضيقة وسروال غامق. ربطة عنقه بابيون. حذاء ضخم. قبعة قطيفة قديمة القماش والطرز.

نراه وقد أحاط به بعض الأصدقاء، لكنه يصرفهم بإشارة من يده، ويتجول بين حجر القصر المقفر حتى يصل إلى حجرة المكتب التي رأيناها من قبل، وكانت في ذلك الوقت مؤسسة بأثاث فخم. يقترب جان من منضدة ملأى بالتحف وأدوات الزينة ويتناول تمثالاً صغيراً يفحصه برهة ويعيده برهة، ويسير عدة خطوات متأملاً في غرابة ورهبة. تعثر عيناه على صورة امرأة بالغة الأناقة. عينا المرأة كما لو كانتا تنظر إليه، يدير إليها جان ظهره ويسير، لكنه يتلفت من جديد ويثبت أنظاره عليها..

نلمح من فتحة الباب الخادم طويلاً جامد الحركة يرقب جان بلا أدنى تعبير.

جان يستند بمؤخرته إلى منضدة صغيرة عليها سجائر، لكنه يعتدل وينظر من جديد إلى صورة المرأة. ثم إلى صورة جنرال عجوز معلقة إلى جوارها فيخلع آلياً قبعته ويمسكها بيده، لكنه يتبته إلى ما فعل فيغضب لما أتى، ويقذف بالقبعة إلى المكتب فتقلب المحبرة وتغرق المنضدة حبراً فيجرى جان إليها، لكن الخادم يسبقه وقد أمسك بممسحة وأخذ يمسح الحبر المراق. جان يذعر عندما يراه ويتأمله سائلاً..

جان : ماذا تصنع هنا؟

الخادم : كنت خادم صاحب... أقصد رئيس الوزراء السابق.

صمت لبرهة يرقب خلالها جان الخادم وهو يمسح الحبر بحركات دقيقة تدل على مهارة في الصنعة ثم يقول له:
سابقك معي.. (يشير بيده إلى اللوحتين)
ارفعهما..

خرفة المحكمة...

يتابع الخادم الإدلاء بشهادته مواجهاً المحلفين..
الخادم : لم أكن أفارقه للحظة، ولكنه رغم ذلك ما كان

يحس بوجودي.

كان يراني قطعة من الأثاث. وظلت سبع سنوات الأرملة كظله، وكنت ألبسه ثيابه..

شهادة الخادم من فترة ما قبل عدة سنوات...

غرفة جان في القصر. نرى جان بالقميص ونرى يدين ممتدتين إليه بصديرية فيدخل فيها.

ثم نراه من جديد بالقميص، ونرى اليدين تمتدان إليه بالسترة الرسمية.

ثم نراه من جديد بالقميص، ونرى اليدين تمتدان إليه بالوشاح الرسمي.

ثم نراه بالقميص من جديد، ونرى اليدين تمتدان إليه بالسترة العسكرية المليئة بالأوسمة.

ومع هذه المشاهد المتوالية نسمع صوت الخادم معلقاً:

سبع سنوات لم أفارقه فيها. كان في أول الأمر

يشرب فنجانين من القهوة في الساعة...

نرى جان جالساً إلى مكتبه منهمكاً في الكتابة ونسمعه

يقول دون أن يرفع رأسه:

قهوة!

يختفي الخادم من خلفه، ونرى إبريق القهوة يرتفع إلى
الفضاء وحده، ويسكب القهوة في فنجان جاء وحده أمام جان
الذي يقول بعدم اكتراث:

شكرًا!

وبينما نرى جان يشرب قهوته نسمع صوت الخادم معلقًا:
ولكنه في السنتين الماضيتين لم يعد يطلب
القهوة... بدأ يطلب...

جان : ويسكي!

نرى جان جالسًا إلى مكتبه ووجهه أكثر تجهّمًا ويده أكثر
ترددًا. ونرى وراءه زجاجة ويسكي ممتلئة. ونرى كأسًا
يذهب وآخر يجيء أمام جان الذي يفرغ كل كأس بجرعة
واحدة. ونسمع صوت الخادم معلقًا:

لم يعد حتى يشكرني "قلم أكن موجودًا بالنسبة
إليه" ولكنه مرة واحدة فقط بدأ كما لو كان
يراني..

تاريخ حياة طاغية

نرى جان مكبًا على دراسة ملف، وهو يتناول طعامه على مكتبه. يتوقف فجأة عن العمل ويدفع طبقه ويتوه بنظراته في الغرفة كما لو كان يبحث عن فكرة ما. لكنه يرى الطبق الموضوع عن يساره في اللحظة التي يرتفع فيها الطبق الآخر في الهواء كما لو كان قد أمسكت به يد لا ترى... وإذ ينظر جان يبين الخادم فجأة وهو يسحب الطبق ليأخذه. وإزاء نظرات جان يرتبك الخادم فنسمع جان يقول له بلهجة حاملة مندهشة:

ها أنت ذا! لم أكن أراك، لكن ها أنت ذا... لكن

قل لي، لماذا اخترت من دون كل المهن أن

تكون خادمًا؟ هذه أخط مهنة..

ولكن جان كان كمن يخاطب نفسه، إذ ما يكاد يتم كلامه حتى يكون قد أدار رأسه واستغرق في التفكير وهو يقلب الملف الموضوع أمامه، ونرى الخادم والطبق في يده يتطلع إليه بكراهية. لكن جان يصيح فجأة دون أن يرفع رأسه:

ويسكي!

يختفي الخادم في الحال ونرى الطبق ينتقل تلقائيًا من نفسه إلى صينية قرب زجاجة الويسكي. ونرى الزجاجة تملأ بنفسها كأسًا يرتفع من نفسه ويحط على مكتب جان...

غرفة المحكمة...

يواجه الخادم المحلفين ويواصل أداء شهادته ويتلصص نظره إلى ظهر جان الذي ما يزال يدير ظهره للمحلفين..
الخادم : لكنه لم يكتف بالخمور وحدها... كانت هناك النساء أيضاً.. امرأة كل يوم.. تقريباً..

يشير فرانسوا إشارة اشمئزاز إلى الخادم طالباً إسكاته..
فرانسوا : لا أستطيع أن أصدق!

إلا أن ضحك الصالة يغطي على كلامه، وقبل أن ينتهي من كلامه تنهض إحدى المحلفات وتساءل..

المرأة : امرأة كل يوم؟ كيف كان يحصل عليهن؟

المحامي : (بحدة) وما شأننا بذلك؟

المرأة : دع الشاهد يتكلم!

ويهز فرانسوا كتفيه استخفافاً ويشير إلى الخادم ليكمل شهادته فنسمعه يقول..

الخادم : كان يتلقى من مائة إلى مائة وخمسين رسالة

غرام في الأسبوع، فكان يستدعي صاحباتها

إلى مخدعه حسب ترتيب ورود الرسائل إليه،

كل بدورها...

شهادة الخادم على فترة لعدة سنوات...

يقدم هذا الجزء من الشهادة بسرعة واقتضاب كما لو كان
يقدم شريطاً إخبارياً...

مكتب صغير في القصر...

نرى موظفاً يجلس إلى منضدة تكومت عليها الرسائل وهو
يفتحها بفتاحة ويتطلع إلى التوقيع ثم ينقل الاسم في دفتر،
ويضع الرسائل في دولاب له منافذ كصندوق البريد. ونسمع
صوت الخادم معلقاً:

وبعد ذلك تقوم الشرطة بالتحري عن جمال
وحالة كل واحدة من صاحبات الرسائل..

شارع...

نرى امرأة تخرج من شارع يتبعها شرطي في ملابس مدنية.
تدخل المرأة أحد المحلات العامة فيربط الشرطي أمام الواجهة
ويكتب شيئاً ما في فترة، ونرى صفحة الدفتر مكتوب عليه

بخط كبير "رينيه كاراس" وتحت الاسم العبارات التالية التي ترك
أمامها خاليًا حتى يملأه فيما بعد...
آراؤها السياسية...
علاقاتها الشخصية...
طبائعها...
ونسمع صوت الخادم معلقًا:
وبعد ذلك تعرض عليه صور النساء...

غرفة مكتب جاك...

نرى جان جالسًا إلى المكتب، والخادم خلفه يقدم له ثلاث
صور للمرأة السابقة. الصورة الأولى لها بثوب السهرة،
والثانية بثوب عادي، والثالثة بمايوه بحر. يتطلع جان إلى
الصور كمن شبع من كل هذا، ثم يشير إشارة غامضة، ونسمع
صوت الخادم معلقًا:
وإذ نالت المرأة رضاه أحييت إلى الكشف الطبي..

عبادة طبيب...

نرى طبيباً بقميص أبيض يعاين المرأة التي شاهدنا صورها ونسمع صوت الخادم معلقاً:
وأخيراً تحصل على موعداً معه...

غرفة مكتب جان...

نرى جان جالساً إلى المكتب. وفي هذه المرة نرى مكتباً أصغر إلى يمينه وقد جلست إليه إيلين تضرب على الآلة الكاتبة بينما يدخل الخادم إلى المكتب، وينحني أمام جان الغارق في عمله، ويضع أمامه كارتاً فيتطلع جان إلى الاسم "رينيه كاراس" وينهض ويلقي بنظرة مستخفة إلى إيلين التي يبدو عليها الاشمئزاز والغضب، ويخرج جان من المكتب، ويدخل حجرة صغيرة مؤنثة لهذا الغرض بسرير عريض ومقعدين وثريين ومائدة. يفتح الخادم الباب الثاني للحجرة فتدخل رينيه كاراس خجولة مثيرة. يغلق الخادم الباب ثم ينظر إلى الساعة التي تشير إلى الخامسة، وبعد لحظة نرى الساعة تشير إلى الخامسة والنصف والخمس دقائق. يستدير الخادم الذي كان يقف أمام النافذة، ويتجه بنظره إلى الباب الذي

سمعه يفتح. يظهر جان بكامل ملابسه وقد تشعث شعره قليلاً
فيقترب منه الخادم ويخرج مشطاً من جيبه يمر به على رأس
جان دون أن ينبس بحرف.
يدخل جان حجرة مكتبه فيتطلع إلى إيلين بنظرة فيها خوف
وقلق ثم يستغرق في عمله..

قاعة المحكمة...

يتابع الخادم الإدلاء بشهادته...
الخادم : خمس نساء كل أسبوع، ولكل منهن نصف
ساعة..
المحامي : (غاضباً) إن المحكمة تضيع هيبتها باستماعها
إلى ثرثرة خادم.. إنني أحتج على ذلك.
سوزان : (مقاطعة) على المحكمة أن تتعرف على
الشخص المائل أمامها.
الخادم : وأعرف حكايات أخرى عنه..
فرانسوا : (مقاطعة) فيما بعد، لكن أخبرنا الآن عن

تاريخ حياة طاغية

شعوره عندما كنت تعلن إليه نبأ القرى

الثائرة؟

نسمع ضحكة عالية يطلقها جان عندما يرد الخادم عن

السؤال قائلاً:

قلت لكم إنه كان عند شولشر ملك البترول

الأجنبي الذي استولى على أموالنا، والذي

يستغل عمالنا. وكان مدعواً عنده إلى حفلة

ماجنة. وقدم أحد الضباط يخبره أن أوامره

قد نفذت فلم يعلق بشيء، ولكنه بعد عشر

دقائق ضحك كالمجانين...

شهادة الخادم عنه فترة ما قبل ثلاث سنوات...

غرفة الاستقبال عند شولشر مدير شركة البترول الأجنبية

التي تستغل الثروة البترولية في البلاد. شولشر رجل ضخم

قوي جداً ذو ملامح قاسية. يجلس جان إلى المائدة الكبيرة أمام

شولشر وحولهما عشرون رجلاً وامرأة. والمائدة حافلة

بالكووس الفضية والبللورية وزجاجيات الخمر والصحاف.

والجميع يضحكون مخمورين، والنساء نصف عاريات

والغرفة كلها قد سادها جو ماجن، ونسمع في صخب الضحك
صوت انفجارين.

قاعة المحكمة...

يظهر الخادم واقفاً أمام المحلفين وقد ظهر عليه
الاضطراب الشديد وهو يصغي السمع، ونسمع صوت
انفجارات جديدة تقترب من المحكمة فيسأل الخادم:
ما هذا؟

ويقفز بعض الحاضرين إلى النوافذ يتطلعون منها. ونسمع
صوت الانفجارات والقنابل والرصاص. ويفتح باب الغرفة
ويدخل ثائران مسلحان يعلن أحدهما..
الثائر : هذه كتيبة كروب..

فرانسوا : وماذا عنها؟

الثائر : نجحت في هجومها وهي تحتل الآن ساحة
الشعب والمواقع الغربية، وستهاجم القصر
على ما يبدو..

فرانسوا : ألا يزال لورنتر وشارتان في مراكزهما؟

النائر : أجل...

فرانسوا : حسن، يمكنكما الذهاب...

وينصرف النائران، وينظر المحلفون متعبين إلى فرانسوا
بقلق. بينما يظل جان هادئاً في جلسته..

فرانسوا : لنكمل المحاكمة.

كان المحامي قد اقترب من الخادم فيستدير إلى فرانسوا
ويقول:

أريد استجواب الشاهد؟

فرانسوا : ها هو .. استجوبه.

ويعود المحامي إلى الخادم يحملق فيه، وتستمر المعركة
وضجتها تزداد، حتى ليبدو أن القتال يدور تحت النوافذ،
فيشتد اصفرار وجه الخادم..

المحامي : إنك خائف! تعلم مصيرك لو انتصرت
جماعتنا إذا ما كانت شهادتك ملفقة. هل تزال

مصرًا عليها؟

الخادم : أنا... أنا...

المحامي : هل أنت مصر على أقوالك؟ (صمت) حسن،

لنتابع القضية. كان جان أجيرا يضحك، هيه؟
يزداد الرصاص قريباً، فينظر الخادم إلى النافذة ثم إلى
المحلفين ويقول بصوت متردد:
الخادم : أعني ... أعني ...
ينحني المحامي وقد كتم انتصاره على الخادم المنزعج
قائلاً:

هل تسخر من المحكمة؟ ما هذا الذي قلته...
ضحك ظهر أنه ليس ضحكاً، ومأدبة ماجنة
ثم ليست ماجنة! حدثنا عما جرى من الأول،
وقل لنا صراحة أي يوم كان هذا؟

شهادة الخادم هذه فترة ما قبل ثلاث سنوات...

شارع، تمر سيارة طويلة بيضاء تطلق صفارتها مدوية،
وتقطع الشارع بسرعة خارقة تتبناها من خلف ومن أمام ثلاث
سيارات أخرى، وبعض الجنود من راكبي الموتوسيكلات.
ونرى في السيارة الضخمة البيضاء داريو وجان جالسين
متجاورين. بينما جلس الخادم خلفهما. ونسمع داريو يقول:

تاريخ حياة طاغية

رفض شولشر زيادة الأجور وأحس أن العمال
سيضربون..

جان : (في غموض) آه إذن لهذا..

داريو : هيه؟

جان : لهذا أقام المأدبة. وهكذا أعرف مقدّمًا ما سيطلبه
مني شولشر.

معامل بتول شولشر..

تقف السيارة البيضاء أمام بوابة المعامل، ونرى جمهورًا
صغيرًا يحتجّزه عدد كبير من رجال الشرطة خلف الحواجز.
ينزل جان وداريو من السيارة ويتبعهما الخادم، وتهتف
الجماهير بلا حماس:

- يحيا آجيرا! يحيا آجيرا!

ويبدو واضحًا أن الهتاف صادر عن جماعة من
المأجورين، لأن بقية الجماهير لم تعد تتفعل به ولا تردده.
وعندما يسمع جان الهتاف المفتعل يهز كتفيه ويقول لداريو..
جان : مسألة سخيفة. أبلغ مانيان أنني أفضل السكوت

على الهتاف المفتعل.

يدخل جان وداريو يتبعهما الخادم إلى ساحة المعامل،
فينزل شولشر درج المبنى المركزي المواجه للمدخل العمومي
ويسرع إلى ملاقاتهما، ويكتسي وجهه الصارم بابتسامة، ولكننا
نرى ما يجري وراء هذه الابتسامة من كراهية وحقد...

وفي نفس الوقت يتجمع العمال في صف طويل أقام البوابة
حتى السلم، يرقبون جان بوجوه كالحة صامتة، وقد ثقل الجو
بروح العداء، وعندما يصل شولشر إلى قرب جان ينحني قائلاً:
يسرني أن أستقبلك هنا، يا صاحب الفخامة أنا
ومعاوني..

يهز جان يد شولشر محيياً ثم يتوجه الجميع إلى المبنى
المركزي، يصعدون السلم بينما تتطلق صيحة فردية من
الجمهور:

- آجيرا أيها الخائن! آجيرا الخائن المرتشي!

يتوقف جان ولكنه لا يلتفت، بينما يبتسم له شولشر..

شولشر : أرأيت يا صاحب الفخامة! إنهم لا يحبون أحداً،

لا أنت ولا أنا، سأرى ما...

تاريخ حياة طاغية

جان : (مقاطعاً بإشارة من يده، بينما يستأنف الصعود)

دعهم.

لا أهمية لذلك.

ومن جديد يتصاعد الهتاف:

- الموت لآجير المرئشي!

فيهز جان كتفيه دون أن يتوقف ويدخل المبنى..

المعامل من الداخل...

نشاهد مجموعة من الشخصيات الرسمية والمهندسين يتفقدون أحد الأقسام في نهاية جولتهم. وعلى بعد منهم نرى جان وشولشر وقد انفصلا عن الباقيين يتناقشان..

شولشر : لقد لمست حالتهم النفسية، وسوف يضربون

خلال ثمانية أيام، إلا أنني لن أعطيهم الزيادة

التي يطلبونها، لأن هذه الزيادة هي مجرد تعلقة.

إنما الإضراب هو ما يطلبونه حقيقة، لأنهم

يريدون بالإضراب خلق حالة ثورية تهدف إلى

نزع ملكية العامل...

لكن جان لا يبدو عليه أنه قد تأثر، فيستطرد شولشر دون

أن يرفع عينيه عنه..

شولسر : إنني أطلب إليك أن تزيدني تأكيدًا أنك لن تبغي
الامتياز مهما حدث...

جان : لن أحاول شيئًا من هذا. ثق من ذلك.

شولسر : وإذا اشتد الإضراب وعنف هل أستطيع أن
أطلب إليك تأييدي بالقوة المسلحة؟

جان : كلا، إنما أستطيع أن أكون حكمًا في النزاع.

شولسر : لكن ربما تسير الأمور إلى أبعد مما تتصور،
فاحذر.

جان : لو ناصرته بالقوة المسلحة ضد المضربين
فكأنني أقطع ما بيني وبين عمال البلاد، وسأنتهي
أنا وأنت بعدها في سنتين أو ثلاث.

شولسر : (مهددًا) أهذه كلمتك الأخيرة؟

جان : أجل.

شولسر : يا صاحب الفخامة، بلادكم صغيرة جدًا، وبلادي
كبيرة جدًا...

وفجأة يبتسم ويقول:

هيا نتناول طعام الغداء..

قاعة المحكمة...

نرى المحامي يحاول تهديد الخادم..

المحامي : لا تحاول تغيير الموضوع. لقد سألتك إذا كان

آجيرا قد ضحك عندما أعلنوه بخبر قمع ثورة

الفلاحين؟

الخادم : سأصل إلى هذه النقطة..

شهادة الخادم مع فترة ما قبل ثلاث سنوات...

قاعة الاستقبال عند شولشر، نفس القاعة السابقة، لكننا لا

نرى إلا عددًا أقل من المدعويين هذه المرة، وهم خليط من

الموظفين والمهندسين، والجو ثقيل، وجان يأكل دون أن

يتكلم..

يدخل أحد الضباط ويتجه إلى جان وينحني عليه ويتحدثان

هامسين، بينما يتحدث الباقيون وأعينهم شاخصة إلى الاثنين..

جان : وإن؟

الضابط : انتهى الأمر .

جان : هل كان صعبًا؟

الضابط : قاوموا فاضطرونا إلى...

جان : (مقاطعًا بنفاد صبر) أكان صعبًا جدًا؟

الضابط : دمرت عشر قرى واعتقلت سبعة عشر ألف رجل.

جان : هيه.. سأراك بعد لحظة.

ينسحب الضابط، ويظل جان جامدًا لكنه يكف عن الأكل وبطيل النظر إلى الحائط المواجه من فوق رأس شولشر الذي يستمر في النظر إليه..

ونرى على الحائط مجموعة مثبتة من الأسلحة الأثرية منها بندقية ضخمة..

شولشر : هل تحب الأسلحة الأثرية يا صاحب الفخامة؟
عندي منها مجموعة جميلة.

ينهض شولشر ويتجه إلى الجدار ويحاول انتزاع البندقية ويفلح بعد جهد ويمسكها بيديه. ويغمز لأحد المهندسين فترسم على وجهه ظل ابتسامة بينما يقول لجان:

تاريخ حياة طاغية

أُترى العاج المطعم به البندقية على كعبها؟
ويمد يده بالبندقية لجان الذي يمد يده اليسرى ليتناولها
فيقول له شولشر متعمداً:

بيديك الاثنتين يا صاحب الفخامة. إنها ثقيلة
جداً..

إلا أنه يستدرك فيقول بسرعة:

أوه معذرة. أمسكها أنت إنن يا سيد داريو.

بينما يغضب جان فيقول:

لا تمسك شيئاً يا داريو. (ثم يمد يده إلى
شولشر) ناولني البندقية! (ويتناولها بيد واحدة
بمجهود رهيب ويفحصها) الحق معك. إنها
جميلة! (ويناولها لشولشر من فوق المائدة)
لكنها أقل ثقلًا مما ظننت. يد واحدة تكفي، أجل
يد واحدة.

يمد شولشر يداً واحدة لياخذ البندقية لكنه لا يقدر وتسقط
منه على المائدة وتكسر الأطباق والكؤوس والزجاجات، بينما
يتكهرب الجو ويصمت الجميع في دهشة وحرَج، لكن جان

يميل بكرسيه إلى الخلف ويضحك ضحكة عصبية ويظل يضحك.. وفي نفس اللحظة نسمع طلقات الرشاشات وقد تباعدت، وصوت الخادم يقول:
- لهذا كان يضحك..

غرفة المحكمة...

تتوقف المحاكمة للحظة، لكن يبدو على الجميع أنهم كانوا يسمعون ضجيج المعركة الذي أخذ يتباعد إلى أن تلاشى، ثم نسمع من جديد صوت رصاصة وبعدها يسود الصمت التام، ثم يفتح الباب فجأة ويطل النائر الذي كان قد جاء أولاً..
النائر : إنهم يتراجعون نحو القلعة ونحن نطاردهم!
تعلو الهمهمة ويطلب فرانسوا الصمت بإشارة من يده ويقول:

لنستمر..

المحامي : (وقد ذعر وأخذ يهز رأسه منطلقاً إلى من حوله) ما عاد في وسعي الاستمرار؛ ما عدت أستطيع الدفاع عن رجل لا يتكلم لكنه يسخر من محاميي؛ اسمحوا لي أن أنسحب. إنه يهزأ

تاريخ حياة طاغية

بي وأنا أعرض نفسي للخطر من أجله. إنني
معكم، مع الثورة، أجل معكم ضده.

فرانسوا : بل ستدافع عنه. ستدافع عنه وستأخذ أجرك.
داريو : (ناهضاً فجأة وقد صارع نفسه طويلاً لكنه ما
عاد يطيق) الحق معه. هذه محاكمة بشعة.
أنتم لا تحاكمونه. أنتم تغتالونه.

الجمهور يشهق عجباً، بينما تنهض امرأة من المحلفين
قائلة بعنف:

أهو ذنبنا أنه لا يريد الدفاع عن نفسه؟!
داريو : لكنه عار! ثم إننا لم نقاتل كي نستمع إلى خادم
يثرثر. إن القضايا التي نناقشها خطيرة جداً،
فعلينا أن نرتفع لمستواها. علينا أن نقرر هل
كان من الواجب تصنيع الزراعة في الوقت
الذي حدده آجيرا، وعلينا أن نقرر هل كان
في وسعه نزع ملكية شولشر وتأميم البترول،
لا يمكن أن نستمر في مناقشة ذراعه

المكسورة وعقدة النقص المركبة فيه من
جرائها، ولا يمكن أن يستمر هو معتصماً
بالصمت لا يريد أن يتكلم.

يصمت الجميع، حتى المحلفون، فقد صعد داريو الجميع.
ووسط هذا الصمت يتجه داريو إلى جان الذي ما يزال مديراً
لهم ظهره، ويخاطبه من خلف ظهره..

داريو : جان! إني أضرع إليك، دافع عن نفسك
لمصلحتك، دافع عن ذكراك. لا تدعهم
يرمونك بالرصاص كالكلب الضال. جان! لا
تظن أنني أكرهك. إني ما أزال أقدرك ولقد
أحببتك.. لم أثر ضحكك، لكنني ثرت ضد
أفعالك وسياستك. كلمهم إنن. قل لهم كلمة.
إني لأتوارى خجلاً نيابة عنهم وعنك، وعن
نفسي.

جان : (وقد أدار إليه رأسه عندما انتهى من كلامه
ويقول بحدة) لن أتكلم لأن غاية سعادتك هو

أن أتكلم.

ثم يدير لهم ظهره من جديد، بينما القاعة قد انقسم الجمهور
فيها قسمين، قسم يؤيده وقسم يلعنه، ومن جديد انطلقت الشتائم...
- فذر!

- اشنقوه فوراً!

- داريو محق!

- لا يمكن أن نقتل رجلاً لم يدافع عن نفسه!

- إنك تفسد محاكمتك!

فرانسوا : (يقترّب من داريو ويحاول إعادة النظام بيديه)
داريو. ربما وجدنا الحل... (ويهمس في أذن
داريو بشيء يوافقّه داريو عليه بهزة من
رأسه).

داريو : حسن، سأذهب.

يخرج داريو من القاعة، بينما يستدير فرانسوا إلى
الجمهور الصاخبة ويهتف:
سكوت!

ويعود الصمت من جديد فيهتف منادياً:

مانكو!

ينهض من الصف الأول رجل أصلع في الستين من عمره، يضع نظارة قد انحدرت على أنفه، ويبدو عليه أنه من أصحاب العلم البسطاء، ونذكر أنه أحد الكبار الذين رأيناهم من قبل في غرفة الانتظار. ينهض مانكو وقد تأبط ملفات ضخمة، واتجه إلى فرانسوا..

فرانسوا : إنك مهندس زراعي كما نعلم، وقد أمضيت سنتين في وزارة الزراعة، وظللت تحتج دائماً على تصنيع الزراعة الذي أقره أجيرا..

مانكو : (مشيراً إلى الملفات) كان التصنيع حماقة وجريمة، وما هو الدليل..

فرانسوا : تكلم فنحن نستمع إليك..

فبتلفت مانكو حوله متعباً باحثاً عن مكان يضع فيه ملفاته.. ويشير فرانسوا إلى أحد رجال الحرس فيسرع ويضع منضدة صغيرة أمام مانكو يضع عليها ملفاته ويبسطها ويبدأ مراقبته بصوت رتيب..

مانكو : بلادنا تنتج سنويًا..

في شوارع المدينة...

يخرج داريو من القصر إلى الطريق يسير بسرعة، ونسمع أصوات طلقات الرصاص الرشاش، فيلتصق داريو بجدار ويرفع رأسه ويبدو عليه أنه قد رأى النار تطلق من فوق الأسطح، فيستأنف سيره مسرعًا في الشوارع التي يعقبها جو الثورة، ويتوقف أمام بيت واضح الفقر ويدق الجرس مرة ومرتين وأربع مرات، لكن أحدًا لا يرد، فيعبر الطريق إلى الرصيف المقابل وينادي..

- إيلين! إيلين!

ونلمح في الطابق الأول ستارًا يهتز..

- افتحي أنا داريو!

وينتظر لحظة في صمت، فيفتح الباب، ويعبر داريو الطريق إليه ويدخل بسرعة. تدخله امرأة عجوز لا تكلمه ثم تقفل الباب وتصعد السلم وداريو خلفها..

شقة إيلين...

تدخل العجوز داريو إلى غرفة بادية الفقر الشديد، تستخدم غرفة طعام وجلس، وتشير إلى داريو كي يجلس..
- إنها مريضة فانتظر.

وتخرج للعجوز، ويبقى داريو واقفاً ثم يتجول ببطء في الغرفة يتأمل صورها الفوتوغرافية. ونتأملها معه. إنها صور لوسيان دريلنش منتشرة على الجدران، وفوق قطع الأثاث في أوضاع شتى، منها صور للوسيان وقد احتضنته إيلين، وصور له وحده، وصور له وهو يتزلق وصور وسط التلاميذ. وعلى منضدة واطئة تلمح صورة شبه مخبأة لإيلين بين لوسيان وجان وقد أمسك كل منهما بإحدى يديها ضاحكا. يتناول داريو الإطار ويتطلع إلى الصورة بوجه مكفهر، فتدخل إيلين بثياب الحداد، وعندئذ يعيد داريو الصورة إلى مكانها بسرعة ويتلفت إليها فتسأله:

ما الجديد؟ سيحكم بالإعدام .. هيه؟

فيهز داريو كتفيه بأسى مؤمناً..

إيلين : وكيف حاله؟

- داريو : يرفض الدفاع عن نفسه.
- إيلين : (متماسكة تريد أن تحول موضوع الحديث) وكم بلغ عدد القتلى؟
- داريو : لم نعرف بعد..
- يتطلع داريو إلى إيلين التي تنلفت بعيداً وتذهب إلى النافذة، لكنه يلحق بها ويمسك بيدها ويعود بها غصباً قائلاً...
- داريو : إيلين! إن هذه المحاكمة مهزلة، لأننا لا نحاكمه ولكننا ندينه. ستجعلنا هزئة الناس وسنخجل من أنفسنا بسببها.
- إيلين : كان أحسن له لو كان قد قتل أثناء المعركة هذا الصباح.
- داريو : أجل. (مستحيياً بعد تردد) لو أنه يدافع عن نفسه!
- إيلين : وماذا لو فعل؟
- داريو : سيتغير كل شيء. ستتحول المحاكمة إلى مناقشة السياسة التي طبقها.

تحرر إيلين يديها من يديه وتوجه إلى النافذة وتفتحها فتري
منها جثة نائز ممددة في نهاية الشارع. تراها إيلين فتقول
هامسة كالمخاطبة نفسها:

ألم يكف كل هؤلاء القتل حتى يقتلوه أيضاً؟

يقترب داريو منها..

داريو : ساعدينا يا إيلين!

إيلين : في أي شيء؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟

يتطلع داريو وإيلين إلى الشارع فيريا ثلاثة ثوار مسلحين
مسرعين، ومن بعيد نسمع طلقات الرصاص، ويستأنف داريو
كلامه بحزم أكثر:

ما من أحد يعرفه قدر معرفتك له، وأنت

الإنسان الوحيد الذي أحبه في هذه الدنيا، فلو

جئت تشهدين..

يمر المسلحون الثلاثة مرة أخرى ممسكين بأسير يسير
بصعوبة، يجبرونه على التقدم وهم يركلونه وينخزونه بكعاب
بنادقهم. تتراجع إيلين وتغلق النافذة بشدة..

داريو : لو قمت تشهدين فسيذفع عن نفسه أمامك.

أجل، سيدافع عن نفسه، أنا واثق..

تتردد من الشارع النداءات وأصوات الرصاص..

إيلين : لن أذهب!

داريو : إيلين...

إيلين : لا أستطيع يا داريو، أفهمني! قتل زوجي وإني

لأكرمه ولا أستطيع الدفاع عنه. لكنه مع ذلك

ظل أقرب أصدقائنا مدة عشر سنوات، كان لنا

فيها الشقيق فلا أستطيع أن أتهمه.

داريو : نحن لا نطلب منك أن تتهميه. يكفي أن

تحضري وأن تروي ما رأيته لتجعله يدافع

عن نفسه وعن أسباب قتله لوسيان...

إيلين : وهل ينجو لو شهدت؟

لكن داريو لا يجيب...

إيلين : أرأيت يا داريو! لن ينجو، ولا أريد أن أتدخل.

اغتالوه وحدكم. لا أريد أن أتدخل...

داريو : نغتاله؟

إيلين : لم أعد أدري ما هو القتل، ومن هم القتلة. لقد
قتل لوسيان، وها أنتم تفعلون مثله وتقتلونه..
تعود إيلين إلى النافذة وتتطلع إلى الجثة بالشارع ثم تقول
دون أن تلتفت إليه:
امش. ابتعد عني. سيكون لي قتيلان أبكيهما.
داريو : إذن فأنت ترفضين؟
إيلين : أجل أرفض، فاتركني وشأني..

غرفة المحكمة..

يوصل مانكو شهادته المدعمة بالأرقام المحشوة بالتعابير
الفنية المليئة بأسماء القرى، وفرانسوا يصغي إليه وكذلك
بعض المحلفين، بينما الجماهير قد انقسمت على نفسها،
فبعضهم نائم على مقاعده، وبعضهم قد افترشوا الأرض
وناموا ممددين، والبعض يتحدث بصوت منخفض، ومانكو
يوصل شهادته دون أن يتعب أو يمل..
يتتابع جان ويلتفت إلى اثنين من الحرس قد بدا عليهما
التعب الواضح فافترشا الأرض ووضعوا بندقيتهما بين
سيقانهما..

جان : لم أعد أطيق؟

ويتطلع إليه الرجلان دون أي تعبير ولا يجيبا عليه،
فيخرج جان من جيبه صندوقاً من التبغ ويلف سيجارة واحدة
مخاطباً الحارسين..

جان : ها أنتما تريان أنني لست عاجزاً!

يستمر الرجلان صامتين في عداء فيhez جان كتفيه..

جان : لا عليكما. لم أقصد أن أرشوكما، أنتما من

عمال البترول؟

أحدهما : أجل!

جان : أتعلمان في المضخات أم في التكرير؟

الرجل : التكرير.

جان : أتعقدان أنني خائن؟

الرجل : أجل!

يشير جان بإبهامه إلى ما وراء ظهره. إلى المحلفين
والمحامي وفرانسوا والشهود..

جان : وما رأيكما في المحاكمة؟

الرجل : لم يكن لها داع. كان يجب ضربك بالرصاص

فوراً!

جان : أنا معك، لكن فرانسوا مدقق ومصمم أكثر مما يجب.

يفتش جان جيوبه وهو يتكلم باحثاً عن علبة النقاب، ولكن لا يجدها فيسأل الحارسين..

جان : هل لديكما كبريت؟

لكنهما لا يردان فيرفع السيجارة من فمه، ولكن في هذه اللحظة تسقط عليه علبة نقاب فيرفع عينيه ويرى العامل الشاب الجالس على النافذة..

جان : لماذا لا ترقع نعليك؟

لكن الشاب بصمت..

جان : (ملحاً) هل يكلفك ذلك كثيراً؟

لكن الشاب يصر على صمته فيشعل جان سيجارته، ولا نعود نسمع صوت مانكو في هذه اللحظة بعد أن ظل طوال المشهد يتكلم، وعندئذ يقول فرانسوا..

فرانسوا : نشكر الشاهد.

فيجمع مانكو ملفاته ويتأبطها ويعود إلى مكانه فتنهض

سوزان..

سوزان : وأنا أطلب الإدلاء بشهادتي فقد عشت عشر

سنوات يومًا بعد يوم بجانب هذا الرجل، وما

من أحد يعرفه خيرًا مني.

يأتي فرانسوا بحركة كما لو كان يريد أن يرفض ويستدير

إلى جان كما لو كان يسأله رأيه، ولكن جان لا يتحرك فيتطلع

فرانسوا إلى وجه سوزان الذي يطفح بالكراهية، ويتردد لحظة

ناظرًا إلى ساعته ثم يسأل الحارس الذي يقف إلى جواره:

ألم يعد داريو؟

الحارس : كلا.

يهز فرانسوا كتفيه ويشير نحو سوزان..

فرانسوا : تكلمي!

شقة إيليه...

لا يزال داريو وإيلين كما هما أمام النافذة، ثم يقول داريو

بعد لحظة..

داريو : إنن وداعًا!

إيلين : وداعاً..

يتحرك داريو كما لو كان سيذهب لكنه يسألها بلا اهتمام...

داريو : أتعرفين من يدير المحاكمة؟

إيلين : أظنه فرانسوا.

داريو : أجل إنه فرانسوا اسمًا، لكنها سوزان فعلاً.

سوزان هي التي تكديرها. فنقفز إيلين دهشة..

إيلين : سوزان؟ لكن بأي حق. هذه المرأة...

داريو : وضعت المحلفين في جيبها وطوتهم طيًا حتى صدقوا كل ما تقول..

إيلين : (بآلم) وهل ستكفي بشهادتها؟

داريو : أعتقد أنها ستروي قصة حياتها معه..

إيلين : (وقد تغير وجهها فجأة) إذن فستحدث عن
لوسيان وعني...

تقول هذا وتفتح الباب وتنادي..

- جانيت! جانيت! (ثم تعود إلى داريو) ليس لي أن

تاريخ حياة طاغية

أدافع عن جان، لكني لن أسمح لهذه المرأة أن
تلتطخ اسمينا فقد كانت تكره لوسيان.. (تدخل
جانيت) أعطني معطفي يا جانيت. سأخرج!

جانيت : أأجنت! القتال يدور في الشوارع!

إيلين : (أمرة) أعطني معطفي بسرعة!

غرفة المحكمة...

سوزان أمام المحلفين تتكلم بعنف..

سوزان: لقد هجرني، وكانت المرة الأخيرة التي رأيته فيها
منذ سبع سنوات في القصر، أي في اليوم الذي
تسلم فيه الحكم..

شهادة سوزان عن فترة ما قبل سبع سنوات...

ردهة القصر الكبرى. عند مدخل القصر المهجور، نرى
جمعاً نميز فيه سوزان ولوسيان وفرانسوا ومانيان، وكلهم
يتطلعون إلى جان الذي وقف منعزلاً. إنه نفس المشهد الذي
وصفه خادم جان، ولكننا نراه الآن مرة أخرى من وجهة نظر
سوزان..

يقترّب جان ممثلاً نقّة ويدفع أحد الأبواب المغلقة، فيفتح الباب فجأة ويكشف عن صف من الحجرات أبوابها مفتوحة، فيشير جان إلى أصدقائه بعظمة كي ينسحبوا كما لو كان يريد أن يمتلك وحده مقره الجديد. وتتدفع سوزان نحوه، لكن لوسيان يحتجزها. ويتركهم جان ويتقدم وحده بخطو ثابت هادئ إلى نهاية الممر حيث ينتظره الخادم في مذلة، بينما سوزان ما زالت ترقب جان بحنان وحزن، وتتدفع مرة ثانية في أثره، لكن فرانسوا ولوسيان يمسكان بها..

يدخل جان إلى غرفة المكتب بعد أن يحييه الخادم، يسير خلفه ثم يغلق الباب وراءه. تتطلع سوزان إلى الباب وقد أغلق ونسمع صوتها يقول بمرارة:

وعندما أصبح له خادم لم يعد يرينني! صار يحاول تجنبني ما استطاع...

المياه أمام القصر...

تحاول سوزان أن تقترب من جان وهو يصعد إلى سيارته الكبيرة البيضاء، لكن أحد حراس جان يمسك بها ويمنعها. وتطلق السيارة ببطء لتمر أمام سوزان التي تنادي..

سوزان : جان.. جان؟

ويتطلع إليها جان من السيارة بوجه جامد وكأنه لم يرها..

غرفة المحكمة..

نرى سوزان وقد احتقن وجهها بالغضب وقد أنهت حالاً جملة وجهتها للمحلفين، ثم تتطلع إلى جان دون أن تقول شيئاً وقد زمت شفيتها، ولكننا نسمع صوتها دون أن تتحرك شفاتها، وهو في هذه المرة ذات الصوت المتوسل الذي أطلقته في الميدان المواجه للقصر، وكانت تقول:

جان، جان، لماذا هجرتي دون كلمة أو إساءة؟

لماذا؟ لماذا؟ ارحمني يا جان! إنني أحبك! أحبك!

ثم تلتفت سوزان إلى المحلفين وتقول في كراهية باردة هادئة:

إنني أكرهه! (بعد فترة) ما قنمت إلى هنا لأحدثكم عن غرامياتي! أبدأ، لكنني عشت معه سنوات وعرفت ما لم تعرفونه. عرفت أنه ارتكب جريمة، ويجب أن تضمنوها قائمة الاتهام.. وإليك قصتها:

لقد قابلت جان أجيرا لأول مرة عام - ١٩، وكان
لقاؤنا هذا قبل الثورة الأولى..

شهادة سوزان عن فترة ما قبل عشر سنوات...

المؤسسة البترولية قد بطلت الحركة فيها بسبب الإضراب.
ونسلم صوت سوزان تتابع روايتها..
سوزان: وكانت لي صديقة اسمها إيلين جورج، وكانت
إيلين هذه تعمل ممرضة في مستشفى المؤسسة،
ولم تكن قد تزوجت زوجها لوسيان دريلتش الذي
اغتاله أجيرا فيما بعد.
ولقد بدأت قصتي هذه وقت الإضراب البترولي
المشهور، وذات ليلة...

شقة سوزان..

نرى سوزان نائمة في سريرها، وسرعان ما يرق جرس الباب
فتستيقظ وتصغي إلى الجرس يرق من جديد فتقفز من سريرها

تاريخ حياة طاعية

وتضيء النور وتضع معطفاً على قميص النوم وتلف قدميها في صندل وتوجه إلى الباب قائلة:

من الطارق؟

إيلين : افتحي، أنا إيلين.

وتفتح سوزان الباب فتظهر على عتبة إيلين، ولكنها ليست إيلين التي رأيناها في المشهد السابق. إيلين هذه شديدة التبرج، ترتدي ثوباً يفصح عن مفاتن جسمها كما لو كانت غائبة لعباً. هذه إيلين كما تراها سوزان..

وترى سوزان خلف إيلين رجلين فنتراجع قليلاً، ونقول لها إيلين..

إيلين : لا تراعي؛ إنهما صديقان.

ثم تدفع الباب في قوة وتكاد تصدم سوزان في طريقها وتتحدث بصوت فاجر، والرجلان يدخلان خلفهما فتراهما قنرين متعبين ممزقين الثياب، يدخل لوسيان أولاً يتبعه جان مكفهر الوجه. ونرى لوسيان يحيي سوزان بابتسامة رقيقة..

لوسيان : عفواً.

سوزان : (فاحصة الرجلين) لكن ما هذا؟ ماذا حدث؟

جان : (في قسوة) ألدك جيران؟

سوزان : كلا! الشقة المجاورة خالية. (تفحص وجهه

جان) ولكن ماذا حدث؟ من أين أتيتم؟

لا يجيب جان، لكن إيلين تجيب بلهجة أرستقراطية مفتعلة، وقد بدا عليها الاضطراب، لكنها لا تبدو حزينة.

إيلين : أواه يا سوزان! المسألة رهيبة. أنزلوا الجيش

واحتل المصنع، يريدون اعتقالنا.

سوزان : أكنت هناك؟

إيلين : (باسمة عن زهو) طبعا كنت هناك، وكانا هناك

أيضًا. آسفة. نسيت أن أعرفك بهما. لوسيان

دريلتش وجان آجيرا..

جان : (مقاطعًا بحدة) اخرسي. (ويستمر في النظر إلى

سوزان حتى يربكها ويجعلها تخفض عينيها).

إيلين : إنها أحسن صديقاتي.

جان : (يهز كتفيه) لكن ما كان هناك داع لأن تعرفيها

بأسمائنا.

سوزان : إذن فلا داعي لأن تتقوا عندي؟!

تاريخ حياة طاعية

جان : إذن.. (ويدور على عقبه ويهم بالخروج لكن
لوسيان يوقفه مبتسماً).

لوسيان : اسمع يا جان. يجب أن ننق في الأنسة فهي
محل ثقة على ما يبدو؟ ثم كما ترى، هي لا
يمكن أن تخوننا، لا يبدو عليها..

جان : مع ذلك فنحن مجبرون، لا حيلة لنا.
وتجرح هذه الكلمات سوزان وتتصنع البرود، فيقترب
لوسيان منها قائلاً:

لقد كنا الآن حالاً في المعمل وهربنا والشرطة
تلاحقنا، فهل تخفيينا؟

سوزان : كم؟

يهز لوسيان كتفيه لأنه لا يفهم، لكن سوزان تتردد ناظرة
إلى الرجلين وتقول:
أنتما الاثنين؟

تقف إيلين بين الرجلين وتمسك بذراعيهما بعدم كلفة
وتضحك في وجهيهما قائلة:
لا بل الثلاثة؟

سوزان : لكن زميلتي التي تشاركني السكن ستعود بعد غد؟

وإذ يسمع جان هذا الجواب يخرج ذراعه من يد إيلين ويسير إلى الباب..

جان : هيا فهي ترفض إيواعا؟

سوزان : (مستاءة) انتظر يا أنت.. من قال لك إنني مستاءة؟

جان : على كل حال لم يظهر عليك أنك غير مستاءة؟
(مخاطبًا لوسيان) أصبحت المسألة فيها من النساء أكثر من اللازم.

يدق جرس الباب فيفزع الجميع وينظرون إلى بعضهم بعض في قلق بينما تظل سوزان هادئة، وترفع يدها إلى فمها مشيرة عليهم أن يتبعوها. وتفتح بابًا يطل على حجرة واسعة ازدهمت بأكوام الغسيل وقطع الأثاث الفائض المقلوبة..

يستمر رنين الجرس ثم يبدأ الطرق على الباب، فتشير سوزان إلى زاوية من الغرفة قد نشرت فيها ملاءة على كرسيين..

- سوزان : ابقوا هنا وتغطوا بالملاء بسرعة!
- ثم تغلق الباب عليهم وتذهب إلى الباب الكبير منادية :
- سوزان : من هناك؟
- صوت : الشرطي، افتحي.
- تفتح سوزان الباب وهي تتصنع النوم وتتطلع إلى رجلي الشرطة بعينين نصف نائميتين..
- سوزان : ماذا تريدان؟
- أحدهما : أنت تخفين بعض المضربين.
- سوزان : مضربون! ما هذا؟ (تفتح الباب على مصراعيه) ادخلا، فتشاً، لن أطمئن إلا إذا فتشتما كل ركن.
- يتبعها الشرطيان إلى الحجرة، يتطلعان حولهما، وتفتح سوزان باب غرفة الغسيل حيث اختفى جان ولوسيان وإيلين وراء قطع الأثاث متغطين بالملاء التي حجبتهن..
- سوزان : هنا غرفة الغسيل، ولو دخلها أحد لكان يجب أن يمر بحجرتي أولاً..
- تغلق الباب وتعود إلى الشرطيين اللذين أخذوا يستعدان

للرحيل..

سوزان : لماذا لا تفتشان.. تحت السرير مثلاً؟

شرطي : (بهمز كتيه) لا تهزلي.

يخرج الشرطيان وقد ألقيا عليها التحيّة فتغلق سوزان الباب بالمفتاح خلفهما وتعود إلى غرفة الغسيل فيخرج الجميع من تحت الملاءة، وتتطلع سوزان إلى جان مبتسمة وقائلة:
والآن؟ ألا زلت ترى أن المسألة صار بها من النساء أكثر من اللازم؟

غرفة المحكمة...

تتابع سوزان شهادتها أمام المحلفين..
سوزان: ولم أستطع إخفاءهم عندي فأخذتهم إلى مزرعة عمي في مكان بعيد من الريف، ولم يكن من المحتمل أن يعثر عليهم مخلوق هناك، وسار كل شيء في الأول على ما يرام، فكان لوسيان يكتب روايته الأولى، وإيلين تلعب دور الغانية، وجان يعذبه السأم من الصباح حتى المساء، أما أنا

فكنت أقوم على خدمتهم..

شهادة سوزان عن فترة ما قبل عشر سنوات...

غرفة في مزرعة سوزان، لوسيان يكتب على طرف منضدة كبيرة، بينما سوزان تلقي إلى الموقد بمجموعة من الحطب، وتختلس النظر إلى محتويات الوعاء المعلق فوق النار. أما إيلين فنراها أمام المرأة تتزين، وجان يقف أمام النافذة يتطلع إلى الخلاء ويتأعب بكثرة من أن لآخر.

وتمر سوزان بقربه تحمل بعض الأطباق والسكاكين والشوك لتضعها على المنضدة، وتقول له:

لا يبدو عليك أنك تحب الريف.

فينظر إليها جان مكفهرًا ويزمجر من ضجره. ثم ترتب سوزان المنضدة وتقرش عليها المفرش فيجمع لوسيان أوراقه ويغلق قلمه، بينما تقترب إيلين منه قائلة:

مسكين يا لوسيان، تظلمك سوزان، بل إنها لا

تحترم ما تكتب. (تخاطب سوزان) ألا تعرفين

أنه كاتب عظيم، وأنت هكذا تعطلينه؟

سوزان : (بخشونة) ربما.. لكن لا بد أن يأكل مهما كان

كاتبًا عظيمًا..

ينهض لوسيان مرتبكًا لكلام إيلين ومبتسمًا لسوزان..
لوسيان : عفواً. إني أناني فعلاً. وكان يجب أن أساعدك..
سوزان : بل إني لأسفة فقد عطلتك فعلاً.
ولكن لوسيان يتناول طبقاً ويساعدها في بسط المفرش
قائلاً:

لم تعطليني أبداً فما كنت أكتب. كنت أنون
أشياء لا أهمية لها..

إيلين : (إلى لوسيان بلع) لا أهمية لها؟ وأنا التي كنت
أتوق إلى التحدث إليك وخفت أن أزعجك!

ويكون لوسيان في هذا الوقت منحنياً على البوفيه يخرج
زجاجة خمر وعدداً من الكؤوس فيبتسم برقّة لإيلين ويقول
لها:

إذن حدثيني!

إيلين : هل يمكن أن نعود قريباً؟

لوسيان : لا أدري. أسألي زعيمنا فهو الذي يقرر هذه
الأمور! يبدأ لوسيان يصفف الشوك والسكاكين

تاريخ حياة طاغية

إلى جانب الأطباق، وتتطلع إيلين إلى جان الذي

ما يزال أمام النافذة، ثم تسأله:

لماذا تدعوه دائماً زعيمنا؟ ألسنت أنت زعيماً

أيضاً؟

لوسيان : كلا!

إيلين : لماذا؟

لكنه عندما يلتفت ليجيب يوقع سكيناً فينحني ليلتقطها ولكنه

يوقع ثلاث شوكات، فتضحك إيلين ويضحك لوسيان ويقول

لها وهو يطلعها على الثلاث شوكات التي التقطها:

ها أنت ترين لماذا لا أصلح أن أكون زعيماً؛

ثم...

إيلين : (مقاطعة) ثم ماذا؟

لوسيان : لعلك تعرفين المثل الذي يقول "لا تصنع العجة

من غير كسر البيض"؛ أما أنا فلا أحب كسر

البيض حتى ولو كنت سأصنع منه عجة..

يستمر لوسيان في ترتيب المنضدة مع سوزان، بينما إيلين

تنظر إليهما صامتة، ثم تتجه إلى جان وسوزان تلاحقها بنظرة

قاسية، وعندما تصل بقرب جان تلمس بخفة قفاه فيرتعد وينظر إليها نظرة اشتهاة واضحة، وتصدم إيلين فتحاول الضحك معه، لكنها تبدو مرتبكة رغم ذلك..

إيلين : يبدو أنك تعرف كيف تصنع العجة؟

جان : (مشّت الفكر، لكنه يستمر في النظر إلى فم

إيلين) أي عجة؟

إيلين : لا عليك... كنت أضحك... أريد أن أسألك متى

سنعود..

جان : لا أدري (من بين أسنانه مغمغمًا) لا أريد أن

أعود..

إيلين : (وقد ازدادت ارتباكًا) لماذا تتطلع إليّ هكذا؟

إنك تخيفني..

جان : لكنك تعرفين لماذا أتطلع إليك.

وفي هذه الأثناء نرى سوزان تتطلع إليها بغضب قاسٍ

وهي تكاد تنتهي من ترتيب المنضدة..

غرفة المحكمة...

لا يزال جان جالساً مديراً ظهره للمحلفين، ولكنه يستمع في هذه المرة باهتمام إلى شهادة سوزان التي نسمعها تكرر خلفه..
سوزان: أجل، كان يلاحقها، لم يكن يقول شيئاً، ولكنه كان يلتهمها بنظراته، وكان ذلك يخيفها في الأول، ولكنها كانت لعباً فأخذ خوفها يقل بعد ذلك..

شهادة سوزان...

نفس الغرفة السابقة في المزرعة، سوزان تكنس وتنظف
أما إيلين فهي جالسة إلى المنضدة وأمامها كتاب مفتوح وجان
يتطلع إليها بنظرات ثابتة فترتبك وترفع رأسها عن الكتاب..

إيلين : حدثني. قل شيئاً!

جان : وماذا أقول لك! إنني لا أحسن الكلام مثل

لوسيان.

إيلين : لكنك تحسن الكلام فعلاً، بل إنك لتحسنه جداً

إذا أردت.

تتجه سوزان أثناء ذلك إلى باب المطبخ تحمل وعاء،

وتتردد قليلاً عند عتبة الباب، لكنها تقرر المضي وتملاً الوعاء وتعود لترى إيلين بين ذراعي جان الذي ينهال عليها تقبيلاً، لكنها تغلت من بين ذراعيه بعنف وتتنظر إلى جان نظرة غريبة فيستدير دونما كلمة ويغادر الغرفة فجأة وبسرعة. أما إيلين فتجلس إلى المنضدة وتبكي مسندة رأسها بين ذراعيها...

إيلين : كفاية! كفاية! أريد العودة إلى بيتي!

سوزان : (تقترب منها وتمسح على شعرها ووجهها بشدة) أنت السبب؛ تشاغلين الاثنين بينما كان من الواجب أن تختاري واحداً منهما..

إيلين : (ناهضة فجأة) واخترت فعلاً. إن لوسيان يريد أن يتزوجني..

سوزان : ثم ماذا؟

إيلين : وافقت.

سوزان : (وقد بدا على وجهها الانتصار لحظة) ولماذا؟
لأنه أجمل؟ فتهز إيلين رأسها موافقة..

سوزان : ولأن لوسيان له ذراعان، وسيكون كاتباً عظيماً،

تظنينه لذلك أحسن الاثنين؟

نلاحظ أن سوزان تتكلم بلهجة لا أثر فيها للانفعال لكي تجبر إيلين على التحدث بدلاً من الرد عليها بالإشارات التي تتطوي على بعض السخرية، ويبدو أن إيلين قد وقعت في الشرك فنراها تمسح دموعها وتبتسم ابتسامة باردة لها معنى.. ونسمع صوت سوزان يدوي في المحكمة قائلاً:

وتزوجت لوسيان وإيلين في القرية.. وليلة

الزفاف..

نحن من جديد في غرفة المزرعة السابقة، في المساء، وقد جلس كل من سوزان وإيلين وجان ولوسيان أمام الموقد والنار قد اشتد أوارها، والارتباك يخيم على الجميع، بينما سوزان ترقبهم...

سوزان : (لتقطع السكون) وبعد.. أأن ننام؟

الثلاثة : أ.. أجل.. أجل..

لكنهم لا يتحركون، ومن جديد يغلفهم الصمت. ونرى لوسيان ينظر إلى طرف حذائه بينما ينقر جان على ذراع كرسيه، وإيلين شاردة زائغة العينين..

تدق الساعة منتصف الليل فتوقظهم ويتطلعون إليها

جميعاً...

إيلين : إنه منتصف الليل. اصعدي إلى غرفتك يا

سوزان فأنت تستيقظين مبكرة..

سوزان : (مصممة على الانتظار) كلا، كلا. اصعدوا

أنتم فسوف أنتظر قليلاً حتى أرتب الأطباق..

لوسيان : (ناهضاً) هيا إذ لا يجب أن نبقّيها ساهرة أكثر

من ذلك..

تنهض إيلين وتقف إلى جوار لوسيان، ويتطلع الاثنان إلى

جان الذي لم يتحرك وما يزال ينقر على ذراع الكرسي...

إيلين : إذن عمت مساء سوزان..

سوزان : عمت مساء..

لوسيان : عمت مساء سوزان..

سوزان : عمت مساء..

إيلين : (إلى جان، مرتبكة) إلى اللقاء..

لا يتحرك جان، لكنه عندما يحييه لوسيان يرفع إليه عينيه

ويبتسم برقّة، يذهب لوسيان وإيلين، ويمسك جان بكأس من

فوق المنضدة ويضغط عليه أثناء صعودهما. الاثنان ما

تاريخ حياة طاغية

يزالان يصعدان في ارتباك إلى أن يختفيا، بينما صدى
خطوهما ما يزال مسموعًا. ثم يسود الصمت من جديد فيمد
جان يده إلى سوزان...

جان : اغسليها..

سوزان : ماذا أغسل؟

جان : هذه..

يفتح جان يده فيظهر الدم يلطخها إذ أنه كان قد حطم
الكأس فتصرخ سوزان...

جان : لا تخافي إنما اغسليها.

سوزان : ومما أخاف؟ أنا لم أخف أبدًا.

تسير إلى الحنفية وتملأ قدرًا من الماء وتعود إلى جان
حاملة خرقة نظيفة ومنديلًا كبيرًا، بينما جان يتطلع إلى
السقف دون أن يهتم بسوزان التي تغسل يده حتى تنتهي
وتضمدها له..

سوزان : خلاص. هيا اصعد إلى غرفتك. تصبح على
خير.

جان : تصبحين على خير.

سوزان : ألا تشكرني؟

جان : شكرًا.

تنهض سوزان فتصعد إلى غرفتها وتتطلع إلى المرأة مبتسمة بينما يفتح الباب خلفها ببطء، إنه جان. تنظر إليه فيخيفها شكله وتراجع قليلًا، لكنها تستعيد نفسها بينما يقترب هو منها ببطء حتى يصير على بعد يسير منها فيتوقف وينظر إليها مهممًا من بين أسنانه...

جان : إن ضوء القمر ليغمر الدنيا ويخلق جواً بديعاً
لليلة زفاف؟

سوزان : أجل. إنها ليلة بديعة.

وفجأة يأخذها في حضنه ويقبل شفيتها. وأثناء ذلك نسمع صوت المحامي يقول مدوياً:

وتركتيه يقبلك وأنت تعلمين أنه يحب امرأة
أخرى؟

سوزان : لم يكن يحبها. كان يشتهيها فقط!

المحامي : (بصوت مدو) وأنت؟ أكنت تحبينه؟

سوزان : إني.. إني..

تاريخ حياة طاغية

ونعود إلى جان محتضناً سوزان يقبلها ثم يبتعد عنها، بينما سوزان قد أضاء وجهها. ثم نرى سوزان أمام باب القصر الداخلي، تنتظر جان خارجاً في سيارته البيضاء الضخمة وهي تتأدیه بيأس:

جان! جان!

ثم نعود فنسمع صوت سوزان يعلن في وحشية متردداً أول الأمر:

كلا! كلا! ما أحببته أبداً.

غرفة المحكمة...

سوزان: (تخاطب المحلفين) ولكني وهبته حياتي. كنت خادمته. كنت أصنع له كل شيء وكان يشتهيني دوماً، لماذا؟ لست أدري، ثم صدر العفو العام فرجعنا إلى المدينة، وكون جان منظمة ثورية، أشرك فيها رفاقه، وكانوا يجتمعون عندي، وكان جان يدير الاستثثار بسلطة إدارتها وحده، لكن بنجا الصغير كان يزاحمه فيها ويعترض طريقه.

أنتم تعرفون بنجا، ألا تذكرونه؟

شهادة سوزان عن فترة ما قبل عشر سنوات...

شقة سوزان..

جان في مقعد مريح منهمكاً ولا يبدو عليه أنه يرى سوزان الجالسة قبالة..

جان : (فجأة) غليونني!

وفي الحال تعطيه سوزان غليونه محشواً، فيضعه في فمه ثم تمد له عود كبريت مشتعل فيقول لها وهو يشعل غليونه..
جان : ستجتمع اللجنة هنا حالاً. قدمي لهم البيرة.

سوزان: كم سيكون عددهم؟

جان : ثمانية كالعادة.

يدق الباب فينهض جان قائلاً:

بدأوا يأتون فاذهبي واحضري البيرة عندما أناديك..

تدخل سوزان غرفة الغسيل، وتتناول عددًا من زجاجات البيرة فتدخلها على صينية، وتقف لحظة أمام المنضدة..
ثم تتهدد تهيدة خفيفة وتتمالك نفسها وتعود إلى هيئة الجد

تاريخ حياة طاعية

التي كانت عليها وتجلس إلى جوار المنضدة منتظرة بينما تصل إليها من الغرفة الأخرى أصوات نقاش عنيف فتقفز وتحار فيما يجب أن تفعل، ثم تذهب إلى الباب تسترق النظر من فتحة المفتاح فترى أعضاء اللجنة، ومن بينهم لوسيان وإيلين وجان وبنجا، وكلهم واقفون يتناقشون في غضب، ثم ترى جان يمسك بنجا من جاكته يهزه منها بغضب محتدم، وعندئذ تفتح سوزان الباب وتتدفع إلى الغرفة...

سوزان: جان!

يفلت جان بنجا ويستدير إليها...

جان : من الذي أذن لك في الدخول؟

يتطلعون إليها كلهم، عندئذ تحس الحرج...

جان : اذهبي وأحضري البيرة.

تذهب سوزان وتعود بالبيرة على الصينية، فتضعها على

الطاولة وتلتقي نظراتها بنظرات إيلين التي تبسم لها..

وعندئذ نسمع صوت سوزان تقول بمرارة...

سوزان: كانوا قد ضموا إيلين إلى اللجنة ولم يضمنوني..

ونعود إلى المشهد السابق فترى سوزان ترد على ابتسامة

إيلين ببرود، ثم نعود إلى غرفة الغسيل، بينما نسمع وتسمع

هي صوت جان يدوي...
جان : اختاروا، إما رأيي وإما رأيه!

نفس المشهد السابق بعد عدة ساعات...

زجاجات البيرة الفارغة، والكؤوس، والمنافض الممثلة ببقايا
السجائر وقد انتثرت، وجان غاضب ينقر على المنضدة...
جان : إما أنا وإما هو، لا يمكن أن نستمر هكذا، إما أنا
وإما هو..

بينما جلست سوزان هادئة تخطط ثوبًا بيديها، وجان يهتف
من جديد...

إما أنا وإما هو... لكنني سأقضي عليه...
وتواصل سوزان الخياطة هادئة، لكننا نسمع صوتها يقول
بقسوة:
وقضى عليه ذات مساء...

غرفة سوزان...

سوزان جالسة بعد عدة أسابيع تخطط ثوبًا، ثم يدق الجرس
فتقدم لتفتح الباب وتدخل إيلين في ألفة على البيت...

- إيلين : أين جان؟ أريد رؤية جان!
- سوزان: وهل منعتك يوماً من رؤيته؟ هو عندك في غرفة الغسيل يعمل..
- إيلين : في أبهى زينتها، شديدة القلق، لكنها متبذلة لأقصى حدود التبذل. تتجه إلى غرفة الغسيل وتفتح الباب دون أن تدق، فيقف جان مبتسماً وقد ترك أوراقه كما هي، وإيلين تقترب منه، وسوزان تبقى واقفة عند الباب تريد أن تبقى، لكن إيلين تكح كحة خفيفة وتقول بازدراء...
- إيلين : عن إذنك يا سوزان، أريد أن أحادث جان على انفراد.
- سوزان: هل ستقولين له ما لا يسمح لي بسماعه؟
- إيلين : لكني من أعضاء اللجنة يا سوزان!
- سوزان: يبدو أن ظهر هذه اللجنة قوي يحتمل كل الأعداء!
- تخرج سوزان وترد الباب خلفها بعنف، وتسير في غرفتها

رائحة غادية محدثة ضجة ثم تسير في خفة الذئب إلى الباب
تسترق النظر من ثقبه وتلصق أذنّها به فنسمع...

إيلين : كلا يا جان. لن نتراجع فأنت موروب للآخر..

جان : انتصرت يا إيلين، فزت، اذهبي الآن ولا تطلعي
لوسيان على شيء..

ترجع سوزان إلى مقعدها وتبدأ الخياطة من جديد، وقد
كست وجهها براءة من لا يعلم شيئاً. يفتح الباب وتخرج إيلين
محمرة العينين من البكاء وتقول لسوزان دون أن تتوقف:
إلى اللقاء يا سوزان.

نصمت سوزان وتحملق في جان الذي يدخل الغرفة
بخطوات بطيئة ثم تسأله...

سوزان : ماذا كانت تريد؟

جان : لا شيء!

سوزان : من حقّي أن أعرف لماذا تجيئك هذه المرأة وتخلو

بك في الساعة العاشرة ليلاً وفي بيتي لتخرج بعد

نصف ساعة مهوشة باكياً...

جان : لم تكن تريد شيئاً.

تاريخ حياة طاعية

ويُتجه جان إلى الدولاب ويفتحه ويبحث فيه في درج من
أدراجِه، فتتهض سوزان قلقاً...

سوزان: عماذا تَبُحُث؟

يخفي جان شيئاً في جيبه ولا يجيبها. فتجري سوزان إلى
الدرج وتبحث فيه...

سوزان: لماذا أخذت المسدس يا جان؟

جان : لا تتعبي نفسك. هذا شيء لا يخصك.

سوزان: (وهي شبه مجنونة) سنقتل يا جان؟ هل ستقتل
لوسيان؟

جان : (مذعوراً) لوسيان؟ لا تكوني حمقاء! ولماذا أقتل
لوسيان؟

يُتجه جان إلى الباب، لكن سوزان تعدو خلفه معترضة
طريقه...

سوزان: لن تمر حتى أخبرني لمن أخذت المسدس؟

جان : (وهو يزيحها من طريقه) ابتعدي.. إنه من أجل
بنجا!

سوزان: بنجا!

جان : إنه خائن وشى بنا. ومعى الدليل سأطلع اللجنة عليه.

سوزان: (متألمة) آه... إذن فقد حصلت على الدليل... ثم ماذا؟

جان : عليه أن يدفع ثمن الخيانة.
ويبتسم جان ويفتح الباب ويقول بخبث، والألم مع ذلك يضمه:

ها قد انتصرت عليه؟
ويخرج فتتاديه سوزان وهو على رأس السلم...
سوزان: وإيلين، هل هي مشتركة؟
جان : (نون أن يلتفت إليها) لا تهتمي بإيلين..
فتغلق سوزان الباب ببطء...

غرفة المحكمة...

تتابع سوزان شهادتها أمام المحلفين...
سوزان : وقتل بنجا ليلاً، وبعد خمسة عشر يوماً علم الجميع أنه كان بريئاً مما نسب إليه من تهم.

تاريخ حياة طاعية

ولكن بعد فوات الأوان، كان بنجا قتل. قتله لأنه
كان ينافسه. ثم قتل لوسيان بعد سنوات، لأنه
كان يحسده على شعبيته، ولأنه كان يشتهي
زوجته!

ونسلم صوت امرأة يدوي في الغرفة...

إيلين : كاذبة!

وتستدير سوزان وكل من في المحكمة إلى حيث كانت
إيلين تقف قرب داريو، وفي نهاية الغرفة، تواجه نظرات
الجميع وتقول ببساطة...

إيلين : أنا إيلين دريلنش زوجة لوسيان دريلنش الذي
قتل في المعتقل بأمر جان أجيرا..

ونقترب إيلين من المحلفين، جان كان قد وقف ينظر إليها،
 وإيلين تنظر إليه، فتتوقف مرتبكة.. وفجأة يختفي الجميع،
فرانسوا والمحلفين والحرس والمحامي وجميع الحاضرين.. لم
يعد في الغرفة إلا جان وإيلين ينظران إلى بعضهما، ثم تسحب
إيلين نظرها عن جان فيعود إلى الغرفة أشخاصها من جديد
وترتفع همساتهم في تأييد. إن إيلين ما تزال تحتفظ بالشعبية

التي كانت للوسيان لدى الجماهير. يقترب فرانسوا من إيلين
ويأخذ يدها بين يديه...
فرانسوا : أشكرك.

إيلين : (تهز رأسها وتحملق في سوزان) تكذابين يا
سوزان، وتعلمين أنك تكذبين. جان لم يقتل
لوسيان بسبب الغيرة.

سوزان : إذن لماذا؟

إيلين : هذا ما سأشرحه للمحلفين.

سوزان : هل أتيت لتدافعي عن قاتل زوجك؟

إيلين : أتيت لأنهم طلبوا مني المجيء، وسوف أقول
الحقيقة لأنك شوهتها بما قلت الآن مما استمعت
إليه منك. مثلاً: أنا لم أذهب إلى بيتك ليلة
مصرع بنجا في الساعة العاشرة، بل ذهبت في
الثامنة..

شهادة إيلين عن فترة ما قبل تسع سنوات...

إيلين تصعد الدرج...

تاريخ حياة طاعية

إن إيلين ليست كما وصفتها سوزان إنها شابة لا تعرف
التبرج، متواضعة الثياب، قلقة حزينة، واثقة من نفسها لكن
بغير غرور، بل إن صوتها يختلف عن صوتها الذي كان لها
في المشاهد السابقة والذي وصفتها به سوزان...

تدق الجرس، بينما من داخل الشقة يصلنا صوت الموسيقى
المنبعثة من الراديو. تستمع إليها إيلين وهي تنتظر فتح الباب
ونسَمعها تقول:

لم تكوني تخيطين يا سوزان بل كنت تستمعين
إلى الراديو..

يفتح الباب فتظهر سوزان متبرجة على آخرها، ترتدي
نفس الثوب الفاضح الذي نسبته إلى إيلين..

إيلين : سيحدث شيء فظيع يا سوزان، يجب أن أقابل
جان فوراً..

سوزان: (مرتابة) حقاً يا إيلين، ولكنه الآن مع أحد الناس
بالداخل.

ويفتح باب غرفة الغسيل أثناء ذلك، ويخرج جان قائلاً:
لماذا قلت ذلك يا سوزان؟ أنت تعرفين أنني وحدي

بالداخل؟

ويقف الثلاثة جامدين...

... ثم نسمع صوت سوزان نقول في المحكمة:

وماذا إذا كان ذلك صحيحًا؟ كنت سئمت رؤيتك

وأنت تحومين حول صديقي!

وفي الوقت الذي نستمع فيه إلى صوت سوزان في

المحكمة، نرى الثلاثة الجامدين وقد تغيرت هيئتهم: إيلين

لعوبًا، وسوزان مستكينة، وصوتها لا يزال يردد..

سوزان: كنت أكنب، هذا صحيح! لكنني لم أكن أريدك أن

تري جان، كنت أدافع عن نفسي، ألا تريدني أن

أدافع عن نفسي؟

تستمر إيلين في هيئة اللعوب، وتزيح سوزان من طريقها

وتأخذ جان وتدخل غرفة الغسيل، بينما تسير سوزان إلى

الباب ونسمع صوتها مغضبًا يقول للمحكمة...

سوزان: أي لجنة كانت هذه! أظننني أنني لم أكن أدري ما

يجري خلف الباب المغلق على بعد خمس دقائق

مني!

تاريخ حياة طاعية

نرى سوزان تتحني وتسترق النظر من فتحة المفتاح فتشهد
جان يقبل إيلين، بينما نسمع صوت إيلين يقول بحزن:
إنك قذرة يا سوزان!

غرفة المحكمة...

تواجه إيلين سوزان أمام المحلفين، بنظرة يغلبها الحزن
على الازدراء، حزن يملأ كل وجهها. ثم تتلفت إلى المحلفين
قائلة...

إيلين : ذهبت إلى جان أطلب عنوان بنجا؛ كانت اللجنة
قد قررت قتله وعينت لوسيان منفذاً، لكن لوسيان
أخبرني في آخر لحظة أنه لن يقتل بنجا، فأردت
أن أقوم عنه بعمله، لكن جان قام عني بالمهمة..

فرانسوا: ولماذا رفض لوسيان قتل بنجا؟

إيلين : إذن سأضطر إلى أن أقص القصة من الأول..

فرانسوا: أجل. (إلى سوزان) أأدرك ما تقولينه؟

سوزان : كلا. ليس الآن. (مشيرة إلى إيلين) لكنها كانت
أمانة سره عندما كان في أوج مجده، وكان ينাম

معه. لذلك يجب أن يوجه إليها الاتهام هي
الأخرى..

ولأول مرة يتدخل جان. كان ما يزال واقفاً منذ أن دخلت
إيلين، ولم ترححها نظرتة...

جان : لقد هجرتي إيلين من عشرة أعوام، من يوم أن
اعتقلت لوسيان دريلتش، كانت سكرتيرتي
لاغير، ولم تكن عشيقتي أبداً، وبناء عليه فهي لا
تحمل أي مسؤولية تجاه ما تأخذونه عليّ من
إجراءات سياسية.

ويعود جان إلى الجلوس.. أما إيلين فلم تنتظر إليه وهو
يتكلم.. ويقف فرانسوا مخاطباً جان وسوزان...
فرانسوا: وهذا ما نعرفه، فايلين دريلتش قد مثلت هنا أمام
المحكمة كشاهدة لا كمتهمة..

(إلى إيلين) إننا ننتظر حديثك..

إيلين : (إلى المحلفين) تبدأ القصة أثناء إضراب عمال
البتروكوكنت وقتها ممرضة في مستشفى

تاريخ حياة طاعية

المعامل، ولم أكن أهتم بالسياسة، ولكني كنت عضواً في النقابة، ولم أكن قد عرفت جان بعد، وكان جان وقتها من زعماء الإضراب، لكن لوسيان دريلتش كنت أعرفه، وكان من خيرة أصدقائي، كان كأخ..

شهادة إيلين عن فترة ما قبل عشر سنوات...

معامل البترول... وقد توقف العمل بها نتيجة للإضراب، بينما العمال قد تجمعوا في شكل جماعات صغيرة في شوارع المدينة العمالية. ونسمع صوت إيلين تقول..

إيلين : كان شولشر يدفع لهم مرتبات صغيرة، وبدأ الإضراب في مايو عام - ١٩ واستمر شهراً..

الننيا ليل، ولوسيان وإيلين يسيران جنباً إلى جنب، يمر بهما رجل يركب دراجة مطفأة النور، ونسمع إيلين تسأل لوسيان:

ألا يزال أماننا الكثير؟

لوسيان : كلا.

إيلين : وأين هو آجير؟

لوسيان : في كهف مهجور.

إيلين : (تهز كتفيها) لكن لماذا نتصرفون كالمتأمرين؟

لوسيان : كفى يا إيلين؛ أنت تعلمين أن النقابة غير معترف

بها، ونحن لا نستطيع عقد الاجتماع في المدينة

بصفة رسمية.

إيلين : لكنني تعبت! (ويتوقف لحظة).

لوسيان : أوشكنا على الوصول. ستسرين برويته.

إيلين : رؤية من؟

لوسيان : تتعاطين! رؤية جان آجيراً طبعاً!

إيلين : لكنني لم أتعجب كي أرى جانك هذا، إنما قدمت

لأحضر الاجتماع لا لمجرد رؤية الناس والتلهي

بهم!

لوسيان : يا ماكرا! مع ذلك فجان سيعجبك، لأنه قوي جداً

وذكى... جان هو الذي نظم النقابة، وهو الذي

يعمل كل شيء.

تاريخ حياة طاعية

إيلين : (بضحكة عصبية قصيرة) ها! ها! ها!

لوسيان : ماذا بك؟

إيلين : بل ماذا بك أنت؟ إننا وحدنا.. تسير مع فتاة

وتختار هذه اللحظة لتحدثها عن جان أجيرا!

لوسيان : لكن..

يتوقف لوسيان ويتطلع إلى إيلين يتردد. تمر بهما عربة

يجرها حصان، يوقفها الحوذي وينحني حاملاً مصباحاً يجلو

نوره إيلين ولوسين، ويكشف النور الحوذي فإذا هو جان..

جان : أهذا أنت يا لوسيان؟ اصعد بسرعة.

لوسيان : جان؟

جان : اصعد..

لوسيان : لكن معي رفيقة..

جان : إذن اصعدا كليكما!

يصعد لوسيان وإيلين، ويجلس لوسيان بين إيلين وجان

ويعرفهما بعضهما ببعض..

لوسيان : جان أجيرا. إيلين بوج..

جان : طاب يومك يا آنسة.

إيلين : (باقتضاب) ويومك!

يربت جان على كتف لوسيان في أخوية قائلاً:

وأنت على ما يرام يا أخي الصغير؟

لوسيان : على ما يرام. (ثم ينظر إلى إيلين ويقول) على

أحسن ما يرام. وأنت؟

جان : أنا في أسوأ حال. هل تعلم لماذا عقدنا الاجتماع؟

لوسيان : كلا..

جان : حصل شولشر على ترخيص يبيح له استيراد

خمسة آلاف ألماني يوم الإثنين القادم ليعملوا بدلاً

منا فيقوضوا إضرابنا.

لوسيان : يا إلهي! وماذا سنفعل؟

جان : هذا ما سنقرره.

تتضايق إيلين من حديثهما معاً وإهمالهما لها فتسلي نفسها

بالتطلع إلى الحقول حتى تصل العربية أمام أحد الكهوف وقد

اجتمع عنده عدة مئات من الرجال..

غرفة المحكمة...

نرى إيلين تتكلم دون أن تنتظر إلى جان، أما هو فكان نظره لا يبرحها، وقد أدار كرسيه في اتجاهها، وتحس إيلين به، ويظهر ذلك من طريقة تطلعها إلى المحلفين وإقائها الكلام، إذ أنها تبدو مرتبكة لا تعثر على الكلمات المناسبة...
إيلين : وكانت شخصية لوسيان تضايقني لأنه كان ذائِباً في شخصية جان، كما كان جان يضايقني هو الآخر لاعتداده بنفسه ونقته المفرطة في شخصيته.. الأمر الذي جعلني ارتكب عملاً طائشاً...

شهادة إيلين عن فترة ما قبل عشر سنوات...

الكهف السابق، هائل الاتساع وقد ركبت على جدرانه بعض الفوانيس والعمال صامتون أمام صخرة عالية كالمنبر جلس عليها جان وبنجا وأربعة عمال.
ونرى في الصف الأول من جماهير العمال إيلين ولوسيان.
ونرى جان يتكلم وقد أخذ لوسيان يتطلع إليه كأنما ليس هناك أحد غيره، وإيلين غاضبة لذلك. نسمع جان يقول:

سيصل خمسة آلاف عامل ألماني يوم الإثنين،
وسيقون ما دام أصحاب العمل يريدونهم أن
يبقوا. ولن يكون أمامنا إلا أن نموت من الجوع
كالحيوانات. أيها الرفاق، لقد عارضت دائماً
للجوء إلى التخريب والإضراب، وكنت
اعتبرهما وسيلتين سيئتين لأنهما تستهلكان
طاقاتنا. وكنتم ترون غير رأيي. كنتم ترون
رأي بنجا، وصوتم على الإضراب، وها هي
نتيجة رأي بنجا وتصويتكم في صفه. ها أنتم
ترون الخطر الذي ينطوي عليه اليوم. اليوم
أطالبكم بالتصويت على استئناف العمل..

بنجا : (يتطلع إلى جان بغضب) أيها الرفاق، لن
نستسلم بعد شهر من الكفاح والتضحية! ولن
ندع مجيء خمسة آلاف عامل ألماني غرباء
عنا يثبط هممتنا!

جان : ولو فعلنا، فماذا بعد ذلك؟ إنني أكرر عليكم مرة

تاريخ حياة طاعية

أخرى أن هؤلاء العمال لو بدؤوا العمل في
معاملنا فلن يخرجوا أبدًا. قل لي يا بنجا، تريدنا
أن نستمر في الإضراب، فما هي خطتك؟

بنجا : أن نقاوم..

جان : لكن كيف نقاوم؟

يصمت بنجا والجماهير، بينما ينحني لوسيان على إيلين
ويهمس في أذنها...

لوسيان : هل يعجبك؟

إيلين : أبدًا. يبدو عليه أنه قاسٍ، وتتطوي مقترحاته
على الجبن.

وفي نفس اللحظة يلتفت جان إلى بنجا ماذا إصبعه إليه
قائلًا:

كيف نقاوم؟

ونسلم إيلين نقول من بين أسنانها...

إيلين : جبان! جبان!

لوسيان : (محتجًا بحدة) اسكتي! أنت مجنونة؟ سهل أن

تنتقدي ما دمت لا تحملين أي مسؤولية!

جان : (دون أن يرفع عينيه عن بنجا) كيف تريد أن

نقاوم؟

بنجا : عندنا مال يكفيننا شهرًا لكي نقاوم ونصمد!

جان : (متعجبًا) وبعد ذلك؟ بعد أن يمضي الشهر ماذا

نفعل؟ أستمعون أيها الرفاق؟ يوصيكم بالإضراب

ولا يشير عليكم بالطريقة التي نستطيعون معها

أن نتحملوا نتائجهم وتسيرون فيه!

يخيم السكون لحظة، لكن إيلين تقول بصوت خائف..

إيلين : ولماذا لا نحتل المعامل؟

جان : (يلتفت إليها فجأة) ماذا؟

إيلين : (بصوت قوي) قلت لماذا لا نحتل المعامل؟

لوسيان : كفى يا إيلين، أنت مجنونة؟!

جان : هذا الاقتراح لا يستحق منا حتى مجرد البحث.

فلو احتلنا المعامل لاتهمونا بخرق القانون

والاعتداء على أملاك الآخرين، وسوف يستغلون

هذه الفرصة لاستقدام قوات الجيش واستخدامها

ضدنا.

إيلين : (مغضبة جدًا) دائمًا تنتهقون! دائمًا تستسلمون وتتقادون! أيجب أن نعود خافضي الرؤوس؟ (ثم تستدير إلى الجماهير) هل تريدون العدول عن الإضراب أيها الرفاق؟ هل تريدون التخلي عن النضال عند أول مقاومة تواجهكم؟

جان : (ينحني من المنبر على إيلين ويقول لها من خلفها)

أخربي يا بنت!

بنجا : لو عدنا مقهورين إلى المعامل ستكون مصيبة وحلت بنا. لقد أرقنا ماء وجهنا ولن نستطيع بعد اليوم أن نقوم بأي إضراب. إنهم يعرفون قوتنا بأن يواجهونا بقوة تفوقنا، فلنقبل التحدي الذي يفرضونه علينا. أما القول بأننا لو احتلنا المعامل فسيستقدمون الجيش فهذا قول باطل لأنهم لن يجسروا عليه، إذ كيف يجسرون عليه وقوى

الشعب كلها تقرنا على عملنا وتساندنا. وإن فهل
نستسلم وننقاد؟ هل نعود إلى العمل كالأولاد
العاقلين؟ هل يجب أن تدفعنا امرأة إلى المعركة؟
إنني أعرض عليكم اقتراحي، ولتصوتوا عليه،
فمن الذي يوافق على احتلالنا للمعامل؟

جان : لكن هذا جنون وإجرام!

بنجا : (زاعقاً) فلنطرح الاقتراح للتصويت.

يبدو التردد على العمال أولاً ثم تبدأ الأصابع ترتفع وينال
الاقتراح الأغلبية الساحقة..

بنجا : والآن من الذي يعارض الاقتراح؟

وترتفع بعض الأصابع منها أصابع جان ولوسيان..

بنجا : إذن فقد قررتم لاحتلالها، والآن لنعد جميعاً إلى

عملنا غذاء، وليبق كل منكم في مكان عمله حتى

تنظم الاحتلال هناك..

يصير جان عصيباً ويقفز نازلاً من المنبر، بينما ينسحب

العمال، ويقترب جان من لوسيان وإيلين التي تبسم له مزهوة

بالنصر...

تاريخ حياة طاغية

إيلين : ها أنت ترى أن "البنت" قد تستطيع عمل كل شيء..

جان : لقد ارتكبت حماقة لن أغفرها لك..

وينظر إليها في قسوة ويختفي بين العمال، بينما تنهض إيلين وتتصرف هي الأخرى يتبعها لوسيان، والزهو يملأها مع بعض الحرج..

إيلين : صوت طبعًا مع أجيرا؟

لوسيان : (برقة) ليس مع أجيرا، لكن حالما يصل الألمان سترين يا إيلين أن..

إيلين : (مقاطعة) سأرى ماذا؟

لوسيان : ستحصل حوادث عنف كثيرة، لكني لن أشارك في أي منها أبدًا...

قاعة المحكمة..

نرى إيلين تتكلم وقد كساها الحزن...

إيلين : وتعلمون أنه قد بر بوعده فلم يشترك طوال حياته في أي حادثة عنف...

فرانسوا: أجل نعلم ذلك ونعلم أنه كان طوال حياته يردد هذا القول "ما من نصر يساوي خسارة روح بشرية واحدة".

إيلين : ومات في سبيل رأيه، لأنه أراد أن يبقى يديه نظيفتين حتى النهاية. لكنه مع ذلك شارك في احتلال المعامل، لأن احتلالها كان ينطوي على خطورة يتعرض لها جان، وكان يريد أن يبقى مع جان حتى النهاية؛ لقد كان يحبه.

تتجه إيلين للمرة الأولى إلى جان بنظرها وهي تقول العبارة الأخيرة برقة يضطرب لها جان اضطراباً هائلاً ويصر على أسنانه والدموع تتدافع إلى عينيه، بينما إيلين تواجه المحلفين من جديد..

إيلين : ومر كل شيء في اليومين الأولين على ما يرام، ولكن في اليوم الثالث...

شهادة إيليه، فترة ما قبل عشر سنوات...

مباني المؤسسة والعمال يحتلون المعامل ويغلقون الطرق وبعضهم يتولى الحراسة. وهناك في ركن من أركان المعامل مبنى مستطيل طويل هو المستشفى، وإيلين تقف على بابيه مع لوسيان والسعادة تطفر منها...

إيلين : النظام رائع يا لوسيان!

لوسيان : جان هو الذي نظم الإدارة.

إيلين : لا شك أن جانك ما يزال غاضباً مني.

لوسيان : لم يقل لي شيئاً.

إيلين : (بشيء من الامتعاض) آه!

وفجأة يسمعان صوتاً زاعقاً...

الصوت : جنود الجيش!

ونشهد عاملاً شاباً منحنياً فوق سطح إحدى البنايات يزرق ويده ممدودة نحو مدخل المعامل...

العامل : الجنود! الجنود!

ويحدث هرج، والعمال يخرجون من المباني ويجري آخرون إلى الحواجز، ونسمع صوتاً يقول..

صوت : ما الحكاية؟

صوت : الجنود!

صوت : يرسلون الجنود ضدنا؟

صوت : الجنود! الجنود!

ونرى بعض العمال قد صعدوا إلى الأسطح ونسمعهم
يزعقون ونراهم يشيرون...

الجنود يأتون من ناحيتين.

ويعود الهرج، ويخرج جان وبنجا من إحدى البنايات
ليحيط بهما العمال في الحال، ويكبر عندهم ونسمع صوت
جان من وسطهم يقول:

لا تتكلموا كلكم مرة واحدة، اسكتوا. الهدوء.

ونرى إيلين بينهم تتعلق بذراع لوسيان في عصبية وهي تقول
بخوف:

إني... إني...

لوسيان : لا تخافي يا إيلين، لا تخافي.

ويطبق الصمت الذي يقطعه جان...

جان : لقد خائفنا الحظ لكن لا تلوموا أحدًا، علينا الآن

تاريخ حياة طاعية

أن نخرج من هذا المأزق؛ لا يعقل أن نقاوم ولا
سلاح عندنا، ولو قاومنا سينتهي أمرنا بمذبحة لا
طائل منها، ولا يجب أن نبقي هنا، فلو بقينا
فسيعتقلونا ويرحلونا مكبلين، فهيا اصطفوا!

يتردد العمال، ثم ينتظمون ويصطفون ثلاثة ثلاثة، ويزعق
فيهم جان:

فليتقدم الشيوخ..

وينصاع الجميع له فيقول...

جان : والآن نحو الحواجز وافتحوا البوابات.

يذهب بعضهم ويفتح البوابات ويقترّب جان من شيخ أشيب
يقف في الصف الأول...

جان : تقدم أيها الشيخ... قل لهم إننا سنخرج وإنهم لو
تركونا نمر فسوف نستأنف العمل غدا..

ثم يتوجه جان بكلامه إلى العمال:

أريد ثلاثة يتطوعون لمرافقته.

يخرج من الصف ثلاثة متطوعين يحيطون بالشيخ
ويخرجون إلى البوابة، وبينما يتوقف العمال كلهم في الساحة

يقترب جان من إيلين ولوسيان مبتسماً...

جان : هيه يا لوسيان .. كيف الحال؟

لوسيان : أعتقد يا جان أنهم سيضربونهم بالنار؟

جان : ربما.

إيلين : (بصوت مختلق مغلول) لقد انتصرت!

يتبادلان النظرات المغلولة لحظة ثم تتحرك نحوه إيلين

لكنها ترنّد وترتمي بين ذراعي لوسيان باكية...

إيلين : إنني أكرهه، لا أريد أن أراه..

وفي هذه اللحظة نسمع ضجة كبرى وأصواتاً ترعق..

- لقد أتوا! أتوا!

ونرى العامل العجوز وأصحابه الثلاثة يعودون إلى

إخوانهم فيتجه إليهم جان وبنجا ولوسيان وإيلين ليستمعوا إلى

ما سيقوله الشيخ...

الرجل : إنهم يقبلون لكن بشرط اعتقال آجيرا ولوسيان

دريلتش والممرضة...

يحتج العامل فيرفع جان يده مطالباً بالصمت...

جان : لقد أمروا باعتقالنا، لكننا نستطيع الهرب عن

طريق المجاري، هيا اخرجوا!

وتبدأ الصفوف في المسير فتمر بالبوابة، وعندما يقترب
بنجا من جان وإيلين ولوسيان يتطلع إليه جان ويقول:

لم يذكروا اسمك يا بنجا! ماذا تنتظر؟

لوسيان : أنت مجنون، اذهب يا بنجا! سيحتاج إليك
رفاقنا لو قبضوا علينا.

ويخرج العمال وبنجا معهم، وبينما يخرجون يقترب جان
ولوسيان وإيلين من الحاجز الشبكي ويرقبون الطابور متجهًا
إلى الجنود الواقفين بلا حراك وقد استقرت بنادقهم إلى
جوارهم ويبدو القلق على وجه لوسيان...

لوسيان : تظن أن الأمر شرك؟

جان : لا أدري... لكن ما صنعناه هو الشيء الوحيد
الممكن.

وفي هذه اللحظة يمر طابور العمال بين صفين من الجنود
الذين لا يتحركون حتى يبتعد العمال في سلام فيأخذ جان
ذراع إيلين ويسير إلى لوسيان لا تسعه الفرحة...
جان : تركوهم يمرون..

ويبدو على لوسيان نفس الفرحة، أما إيلين فتبقى عصبية لكنها قد انزاح عن كاهلها هم...
جان : والآن هيا إلى المجاري.
ويجر إيلين وهو يركض ولوسيان يجري إلى جوارهما...

قاعة المحكمة..

إيلين : وخرجنا عن طريق المجاري، وأخذتهما عند سوزان، وأمضينا الليلة عند سوزان، عندها حتى الصباح فأخذتنا إلى مزرعة عمها.

شهادة إيلين عم فترة ما قبل عشر سنوات...

الطريق الزراعي.. نرى لوسيان وإيلين وجان ينتزهون في الحقول وإيلين بينهما وكل نراع من نراعيها يمسك به أحدهما، ومن خلفهم مزرعة عم سوزان.. ونسمع صوت إيلين يقول:
وتصالحنا أنا وجان، وكنا ننتزه نحن الثلاثة معاً،
أما سوزان فكانت تفضل البقاء في المزرعة...
يسير الثلاثة في طريق يوصل إلى ضفة مجرى مائي
فيوقف لوسيان.

لوسيان : ما رأيكم لو عبرناه إلى الحقول الفسيحة؟

إيلين : أهو عميق؟

لوسيان : لن يصل الماء إلا إلى ركبنا.

لكن إيلين ترتجف..

لوسيان : وماذا سيسبب ذلك؟

ويجلس ليخلع حذائيه وجوربيه ويثني سرواله إلى ما فوق

ركبتيه، ويفعل جان مثله..

إيلين : لا بد أن يكون ماؤه شديد البرودة..

لوسيان : إذن دعيني أحملك..

إيلين : أنت؟ لنجرب!

تقول له ذلك برقة كما لو كانت تحدث أختاً لها، فيأخذها

لوسيان بين ذراعيه ويرفعها بصعوبة ثم يضعها على الأرض

مصعداً نفساً تعباً فتضحك إيلين...

إيلين : لا عليك.. سأعبره وحدي..

ولكن جان ينهض وينظر إليها في قسوة ويقول:

أنا الذي سأحملك..

إيلين : أنت؟!!

تتطلع إلى جان بتحد فيقول ساخرًا:

الأنى بذراع واحدة؟ لكنها مع ذلك تكفي، فتعلقي

برقبتي..

وفي هذه الأثناء كان لوسيان قد وصل إلى حافة الماء،

وتبادل جان وإيلين نظرات التحدي الممثلة بها أعينهما..

لوسيان : هيا.. ألن تأتيا؟

إيلين : ها نحن قادمان؟ (إلى جان) ماذا تنتظر؟

وتقترب منه وتطوق عنقه ويحيط جان أسفل ساقها

بذراعه اليسرى ويرفعها كالريشة ويخوض بها الماء ونراه

يشد على خصرها وتستسلم لحظة وتسند رأسها إلى كتفه لكنها

لا تلبث أن تتمالك نفسها فجأة وتتنظر إليه في غير ود، خجلة

من استسلامها والأنثى التي بداخلها، التي دفعته رجولة جان

وصلابته إلى السطح فتقول:

اتركني. اتركني..

لكن جان ينظرها بوجه قاس مكفهر..

جان : أتركك؟ كيف والماء يصل إلى ما فوق ركبتي..

لكن إيلين تحاول انتزاع نفسها فيشدها جان إليه أكثر

تاريخ حياة طاغية

فتضربه بقبضة يدها على صدره وظهره..

إيلين : اتركني! قلت لك اتركني!

أما لوسيان الذي كان قد وصل إلى الضفة الأخرى فقد أخذ يضحك ويقول:

شدها إليك أكثر.. شدها إليك أكثر.. أنا قادم إليك..

ويخوض لوسيان الماء، لكن جان يسير بسرعة أكبر حاملاً إيلين التي ما تزال تحاول رده عنها. ويصل إلى الضفة الثانية فينزلها. وما تكاد تهبط على الأرض حتى تبعد عنه خطوات ونقول بجفاء:

إني لأكره أن يحملني أحد..

لكن جان ولوسيان يجلسان يجفان ساقيهما ويضعان حذائيهما، ويستأنف الثلاثة المسير صاعدين إحدى الهضاب حتى إذا وصلوا إلى القمة جلسوا يتأملون الحقول ويرون الدخان البعيد المتصاعد من المداخل في البلد والمصانع ومعامل البترول..

ونسمع صوت إيلين:

كان أقوى مني، وكنت مضطرة إلى تحديه طوال

الوقت..

ونرى إيلين جالسة بين جان ولوسيان ترقب جان في حقد
ثم تقول في عنف:

بالاختصار أنت لست شجاعاً فحسب لكنك
جبار كذلك..

لوسيان : إنه قوي جداً..

إيلين : (بضحكة قصيرة) رجل حقيقي.. هيه؟ ولكن..
لماذا إذن تطلب دائماً النكوص؟

جان : (يتطلع إليها في حزن ويجيب ببطء أسفاً) لم
يحدث أن طلبت النكوص...

إيلين : لكنك طلبت إنهاء الإضراب!

جان : أجل لأنني ضده حالياً، وضد التخريب، وأنت
نفسك رأيت ما آل إليه الإضراب. نحن لن
نقوى على شولشر وأعوانه وأذنابه، والحكومة
تساندهم بالجيش والشرطة، وهم يستطيعون
بذلك طردنا من المعامل وسحقنا..

إيلين : وإن..

لكن جان لا يرد على إيلين مباشرة، إنما يوجه الكلام إلى
لوسيان..

جان : الواقع يا لوسيان أنني كنت أريد أن أتحدث إليك
في هذا..

إيلين : (وقد أذيت) هل أنا متطفلة عليكما؟

جان : (لا يلاحظ سخريتهما ويقول بلا مبالاة) كلا،

ابقي. (ومن جديد إلى لوسيان) لقد جاء الوقت

لتغيير سياستنا فالأحوال سيئة للغاية والفلاحون

يقترضون ليأكلوا، والطعام غير متوفر في

المدن، وهكذا أصبحنا في وضع ثوري، وستحين

فرصتنا في خلال خمسة أو عشرة أعوام، وبذلك

لا يكون عدونا هو شولشر، لكن حكومتنا.

لوسيان : وبعد؟

وينقر بعود يابس على حذائه مستغرقاً في هم، أما جان

فينفعل مهتزاً وهو يتكلم بينما إيلين تصغى إليه دون أن ترفع

عنه ناظرها..

جان : وبعد يجب أن نغير منهاجنا. يجب أن نعدل عن الإضراب. يجب أن نؤلف لجنة مركزية وحزباً سريعاً له فروع في كل المصانع، بهذه الطريقة نبني جهازاً ثورياً يستطيع عندما يأتي اليوم المناسب أن ينظم الإضراب العام ويشعل الثورة المسلحة. سيأتي بنجا وتورليتز بعد غد للتحديث في ذلك. وفي خلال أسبوعين سيصبح بإمكانني العودة إلى المدينة لأبدأ العمل، فهل توافقني؟

يستمر لوسيان في النقر على حذائه لا يجيب، فتبدو الدهشة على وجه جان ويسأله من جديد:
هل توافقني؟

لكن لوسيان يظل صامناً..

جان : قل ما الذي لا يعجبك؟

هنا يرفع لوسيان وجهه حزيناً ويتكلم بتردد..

لوسيان : إني.. إني لن أستطيع أن أسير معكم..

جان : ولماذا أيها الأخ الصغير؟
لوسيان : أنت تعلم ما سيؤول إليه مشروعك، آلاف من القتلى هنا وهناك. كلا لن أستطيع السير معكم وتحمل مسؤولية هؤلاء القتلى. إنني أفزع من العنف..

جان : لكنك وافقت على الإضراب؟
لوسيان : الإضراب عندي مقاومة سلمية، ولم يحدث أن قتل فيه أحد، بالإضافة إلى أنني كنت ضد فكرة احتلال معامل البترول..

جان : (مشيرًا إلى المدينة والمصانع من بعيد) انظر إلى هناك.. آلاف العمال يكبحون في شقاء، أليسوا ضحايا العنف؟ ألا تكون ضالعا مع العنف في مسؤوليتك عن إبقاء هؤلاء البائسين في وهدة البؤس التي هم فيها إذا لم تناضل ضده؟

لوسيان : أجل أريد أن أقاوم العنف، لكن على طريقتي..

أنا لست رجل تنفيذ، وعملي أن أكتب، وكم أود
لو ألغى العنف وأقضي عليه، لكن بقلمي..
جان : (ضاحكاً بغل) لا تريد أن يصيبك مكروه في
المعركة؟ أليس كذلك؟

لكن لوسيان لا يرد ويصمت تعساً فيوجه جان الكلام إلى
إيلين يائساً..

جان : قولها له.. قولها.. ألا ترين أنه قد نَمَدى؟
أما إيلين فقد أخذت تنتظر إلى الاثنين وتهم بالكلام ولكنها
تتردد ثم تخفض رأسها وتقول بصوت ضعيف كما لو كانت
تكلم نفسها:

لا أدري..

جان : (ناهضاً في غضب) إنكما غبيان..
يقول هذا ويتعد عنها فتتظر إيلين بحنان إلى لوسيان الذي
يقول مخاطباً جان يريد إقناعه:

هذا صحيح فأنا أحرص على أن أظل نظيفاً ما
أمكنني.. ثم ألا يمكن أن أدافع عن هؤلاء
العمال دون أن أوسخ نفسي؟ هل يجب أن

تاريخ حياة طاعية

أسفك الدم وأزهق الأرواح؟ إنني .. إنني أريد
أن أفعل ما هو صواب.

إيلين : ولكن ما هو الصواب؟

لكنها تطوق كتفي لوسيان بذراعيها وتضيف:
إنك رقيق جدًا يا لوسيان..

ويعود جان إليهما وقد هدأ، وبانت عليه الحيرة بدلاً من
الغضب، ويجلس مبتسمًا في وجه لوسيان الذي يبادل له
الابتسامة.. ثم يستأنف جان حديثه..

جان : اسمع يا لوسيان.. صحيح أنني شرس، لكني لا
أريد أن أفقدك، أنا أوافقك أن هذه الألاعيب لا
بد أن توسخ صاحبها، ولكن هناك حدودًا لا
يمكن أن أتعداها في هذه الوساخات فأنا أيضًا لا
أحب العنف، وإذا خطر في بالي يومًا أنني
سأخوض في الدم...

ويقطع كلامه لينظر إلى لوسيان نظرة مستعطفة ويقول:
سايرنا يا لوسيان. كان منا دائما الإنسان الذي
يقول لنا "قفوا" إذا رأنا نستخدم وسائل غير

سليمة أو دموية.

ليس من سواك يستطيع أن يقولها لأنك نظيف.

وأثناء ذلك تكون إيلين قد استعادت هدوءها، ولكن الدهشة

تبدو عليها..

إيلين : تريدون أن يكون ضميركم؟

جان : أجل إذا شئت ذلك. أتقبل يا لوسيان؟

لوسيان : (متطلعًا إليه في ارتياح) على هذا الأساس

أقبل..

جان : (مأذا يده إلى لوسيان عبر ركبتَي إيلين) إذن

كفك..

تتطلع إيلين مبهورة إلى اليدين اللتين كادتَا تستقران على

ركبتيها، يد لوسيان الناعمة الرقيقة ويد جان الغليظة ذات

العقد والأصابع الطويلة القوية..

لوسيان : (لإيلين) وأنت أيضًا هاتي يدك..

وتمد إيلين يدها تضعها فوق يد جان ثم تسحبها وتمسك بيد

لوسيان وتضغط عليها...

قاعة المحكمة...

نرى إيلين تتحدث كما لو كانت تحدث نفسها:
وأحببتهما الاثنين. لكن جان كان يخيفني، قاسيًا
شديد القسوة، وكان وجوده يثقل عليّ، وكان هو
يحس ذلك مني، ويؤمن أنني أناصبه العداء، ولم
يحاول أن يغازلني أبدًا لأنه كان يعرف أن لوسيان
يحبني، وكنت أنا أحب لوسيان حبًا رقيقًا وقبلت
الزواج منه، وليلة الزفاف..

شهادة إيلين عن فترة ما قبل عشر سنوات...

بيت عم سوزان في الريف، وسوزان وإيلين وجان
ولوسيان جالسين أمام الموقد في المشهد الذي سبق أن رأيناه
مرويًا من وجهة نظر إيلين.. جان ينقر بأصابعه على نراع
الكرسي فتقوم إيلين وتنظر إليه في اضطراب ثم تضع يدها
على كتفه ولكنها تتمالك نفسها وتسحب يدها ونقول في فتور:
إلى اللقاء يا جان..

جان : (دون أن يرفع رأسه) إلى اللقاء..

لوسيان : (يقترّب منه ويضع يده على كتفه) إلى اللقاء..
جان : (يرفع رأسه ويواجه لوسيان مبتسماً) إلى اللقاء
أيها الأخ الصغير..

وتتطلع سوزان إلى ما يدور بانتباه شديد، بينما يصعد لوسيان
وإيلين السلم، وفي منتصفه تتوقف إيلين والألم يبدو على
وجهها..

لوسيان : ماذا بك؟

إيلين : لا شيء.. هيا...

وتواصل الصعود وعندما تصل إلى النهاية يوقفها لوسيان
مبتسماً، لكن نظراته يشوبها القلق..

لوسيان : قل لي الآن حالاً.. لماذا تحبينني؟

إيلين : (ضاحكة في حرج، وتقول باحتجاج) أوف..

ليس على السلم يكون هذا السؤال!

لوسيان : بل أجيبيني الآن حالاً...

إيلين : (تضحك في خفة وتمسك ثقبه وتقول له كما لو

كانت تحدث نفسها) لأنك ملاك...

لوسيان : وأنا مثلك لا أستطيع إلا حب الملائكة..

.. ويدخلا حجرة نومهما...

حجرة نوم إيلين ولوسيان...

في الصباحية.. تفتح إيلين الباب لتخرج مرحلة مندفعة
تتادي على لوسيان:

لوسيان.. تعال هنا..

لوسيان : (مقتربا منها محرجا) تعرفين.. إنني خجلان أن

أنزل إليهما.. أحس أنني كالعبيط..

إيلين : لا تبال.. هذا ما يحدث دائما لكل العرسان...

تقول هذا وتجره من يده لينزلا معا، بينما جان وسوزان
ينتظران في الصالة بيتسمان.. وتسأل سوزان إيلين..

سوزان : هل نمت جيدا؟

إيلين : أجل.. وأنت؟

جان : لقد نمنا معا...

يقول هذا ويبتسم ولكن ابتسامته لا تخفي عواطفه
واكفهراره. ويسر لوسيان لقول جان فيضحك قائلاً:

صحيح؟ إذن فلن نكون نشازًا أنا وإيلين..
جان : (مبتدأ نظره على إيلين) بل إنكما أوحيتما إلينا
بالفكرة... وتختفي ابتسامة سوزان وتتنظر إلى
جان بفزع..

قلعة المحكمة...

تتنظر إيلين إلى جان بنفس النظرة الدهشة التي نظرت إليه
في بيت المزرعة، بينما يطرق جان برأسه يتطلع إلى ما بين
قدميه، وتستدير إيلين إلى المحلفين..
إيلين : واستمرت حياتنا معًا إلى أن عدنا إلى المدينة بعد
قليل فبدأ جان ينظم النشاط السري ولجنة الحزب
التي عرفتوها تحكم ولكنكم لم تعرفوا من يكون
أعضاءها، وكانت الأوامر تصدر من هذه اللجنة
وهي التي نظمت الثورة. وكان جان ولوسيان من
أعضائها وكذلك بنجا وأنا، وثلاثة رفاق آخرون
ماتوا، هم بارير وديلبش ولانجيه، وكان اجتماعها
يتم في بيت سوزان وجان. وذات يوم ذهبت مع

لوسيان ..

شهادة إيليه، عهد فتره ما قبل ثمانية أعوام...

إيلين ولوسيان متأبطين، ويستدير لوسيان إلى شارع جانبي خالٍ من المارة وعندئذ تدهش إيلين..

إيلين : إلى أين؟

لوسيان : عندي موعد مع كارلييه، سيقدم لي تقرير لايك عن نشاط المناطق الجنوبية...

إيلين : وأين ينتظرك؟

لوسيان : أمام محل بائع الأحذية في شارع فرديناند..

إيلين : ما هذا العبط؟! المكان هناك مكشوف!

لوسيان : أجل، لكن بنجا هو الذي اتفق معه..

ويواصلان السير حتى يظهر أمامهما شاب يحمل حقيبة صغيرة ويتظاهر بالنظر إلى واجهة محل الأحذية بينما من الطرف الآخر يقف رجلان يرقبانه..

يلمح لوسيان الرجلين فيجر إيلين من نراعها ويوقفها أمام واجهة محل جواهرجي ويهمس..

لوسيان : حذار؛ مخبران يراقباننا.

إيلين : متأكد؟

لوسيان : أجل، لكن لا بد أن تنبه رفيقنا.

وفي هذه اللحظة يعبر المخبران الشارع
ويقتربان من حامل الحقيبة الذي يراهما من
زجاج المحل فيعدو فجأة بأقصى سرعة، وعندئذ
يخرج أحد المخبرين مسدسه ويطلق النار فيسقط
الشاب وتقع منه الحقيبة وتنفطر منها أوراقها
متطايرة.. لوسيان وإيلين لا يتحركان، وإنما
يتجهان بناظريهما إلى الشاب القتيل، وتهم إيلين
بالذهاب إليه ولكن لوسيان يحجزها..

لوسيان : لا تتحركي. يجب أن نبلغ اللجنة حالاً...

شقة سوزان...

نرى جان وبارير وديلبش ولانجيه واقفين يتحدثون، عليهم
سيمات الجد وفجأة يدق الجرس..

جان : من؟

لوسيان : نحن.

يفتح جان الباب فيدخل لوسيان تتبعه إيلين وقد انكرش نفسها وبدا عليها الاضطراب الشديد. ويستجمع لوسيان أنفاسه..

لوسيان : قتلت الشرطة رسول الاتصال مع المناطق الجنوبية..

جان : ماذا؟!

إيلين : أجل؛ حاول أن يجري، وكانوا اثنين من المخبزين، لكنهما أطلقا عليه النار فسقط، وكنا قد وصلنا..

بارير : ألم يتعرفا عليكما؟

لوسيان : رأيتهما في الوقت المناسب، ولو كنا تقدمنا عشر ثوانٍ فقط لوقعنا في أيديهم..

ديلبش : (متهاكاً على كرسي) منذ شهرين وهذه الحوادث تقع باستمرار؛ لا بد أن أخبرنا تصل إلى

الشرطة..

جان : أليس بنجا هو الذي اتفق على الموعد؟

لوسيان : أجل بنجا.

جان : (بغضب) في هذه المرة وضع كل شيء..

اسمعوا، تذكرون من سنتين عندما قدمت قوات

الجيش تعتقلنا، لم تطلب بنجا يومها، وعندما

أقمنا عند سوزان لم يكن يعرف طريقنا إلا

بنجا، وبمقتل عميلنا ضابط الاتصال مع

المناطق الجنوبية اليوم يبلغ عدد الذين أوقعتهم

الشرطة في مواعيد اتفق عليها بنجا ثلاثة.. ثم

هناك شيء آخر، وجد بارير على منضدة بنجا

قصاصة ورق كتبها رجل يدعى لوني يشكره

فيها على المعلومات القيمة التي قدمها له، فماذا

تستخلصون من كل هذه الوقائع؟ أليس بنجا هو

المبلغ؟

تاريخ حياة طاعية

وينظر جان إلى رفاقه مستفسراً فيومئ لانجيه ودبليش
بالإيجاب ويشعل دبليش غليونيه ويقول هادئاً:

أجل هو المبلغ عنا، وكنت أشك فيه من زمن...

جان : (مستديراً إلى إيلين) وأنت يا إيلين، ما رأيك؟

إيلين : لا أعرف.. أظنه فعلاً المبلغ..

لوسيان : (منفعلاً) لكنكم لن تحاكمون رجلاً في غيابه.

استدعوه يدافع عن نفسه أولاً..

جان : مستحيل، لو استجوبناه ووجدناه المبلغ فإننا لن

نستطيع تركه، لأننا لو تركناه سيذهب فوراً إلى

الشرطة، ولو صفينا أمورنا معه هنا تعرضنا

كلنا للخطر.

لوسيان : (متوسلاً) انتظروا قليلاً واختبروه حتى تتحقق

من خيانتته كي لا نقع في أي خطأ.

جان : (بحسم) إذن قررنا حالاً فمصير الحزب معلق

بقرارنا، قررنا، من يؤيد تنفيذ الحكم فيه حالاً؟

وفي الحال ترتفع أيدي لانجيه وبارير ودبليش وجان

بالموافقة، أما إيلين ولوسيان فلا يتحركان...

جان : أربعة أصوات من ستة..

لوسيان : وإذا ظهرت براعته؟

جان : (يهز كتفيه بعدم اكتراث ثم يسود الصمت إلى

أن يقول) إنني آسف، لكن يبدو أن واحدا منا لا

بد أن يقوم بهذه المهمة القنرة، فمن سيقوم بها؟

ويسود الصمت من جديد.. لكنه صمت رهيب في هذه

المرة..

جان : فلنقترع على أننا نقوم بها.. ولنستثني إيلين

طبعًا، أما لوسيان..

إيلين : (في هياج) لكنه لا بد أن يقترع معكم، وإلا

ضاعت الثقة بيننا..

جان : لكنه ضد إعدام بنجا..

إيلين : لا يهم، عليه أن يخضع لقرار الأغلبية..

جان : إذن فليكن..

يقولها ويبدأ في تقطيع ورقة إلى خمسة أجزاء، يرسم على

تاريخ حياة طاغية

أحدها صليباً بالقلم الرصاص، ثم يطوى الأوراق ويضعها في
فنجان...

جان : هناك أربع وريقات بيضاء، والخامسة عليها
صليب. من يسحب الصليب ينفذ الإعدام..

ويضع جان الفنجان على المنضدة فيمد ديلبش يده ويسحب
وريقة ويبسطها بعصبية فتخرج بيضاء. ويسحب لوسيان وهو
يقول بصوت جامد:

لا فائدة من المضي في السحب.

ويلقي وريقته على المنضدة وتتناولها إيلين وتطلع عليها
الآخرين فإذا هي الوريقة التي تحمل الصليب، وترتجف يد
إيلين، ويتشنج لوسيان..

لوسيان : إنني ماض أشم الهواء.

ويسير إلى الباب، بينما يذهب جان ليصافحه، ولكن
لوسيان لا يرى يد جان الممدودة، أو أنه يتظاهر بأنه لا
يراه، ويفتح الباب.

وفي نفس اللحظة تفتح سوزان باب غرفة الغسيل، وينظر
جان إليها ويقول لها في هدوء..

جان : ألم يعد عندنا بيرة؟

شقة إيلين ولوسيان...

اثانها متواضع ولو أنه أحسن من أثاث شقة سوزان وجان. الوقت ليلاً، ولوسيان جالساً إلى منضدة وقد أراح ذقنه بين كفيه حزيناً وخلفه إيلين مكفهرة. تستدير وتفتح درجاً وتخرج منه مسدساً ملفوفاً بالقماش وتعود إلى لوسيان؛ يتطلع إليها بوجه جامد..

لوسيان : لا فائدة..

تظل إيلين إلى جواره ولم تفهم..

لوسيان : لا فائدة؛ لن أقتله..

ثم ينهض ويتناول المسدس من يد إيلين ويعيده إلى درجه، ويعود إلى إيلين يمسكها من كتفها ووجهه كله عذاب..

لوسيان : إيلين، أنا لست جباناً، لا أريدك أن تعتقدي أنني جبان.

إيلين : (بحنان) أعرف يا لوسيان..

لوسيان : سأستقيل من الحزب غداً..

إيلين : (مضطربة) لكنك قبلت..

لوسيان : لم أكن قد فكرت... لا أريد.. لا أستطيع أن

أقتل إنساناً قد يكون بريئاً..

إيلين : ونتركه يشي بالمنظمة كلها للبوليس!

ويخطو لوسيان عدة خطوات ثم ينهار على كرسي كبير..

لوسيان : لا أعرف سوى أنني لن أقتل بنجا..

وتحاول إيلين أن تعارضه لكنه يقاطعها..

لوسيان : ماذا سيكون رأيك فيّ لو قتلته وكان بريئاً؟

إيلين : (بقسوة) وماذا سيكون رأيك في نفسك إذا ما

قبض البوليس على جان غداً؟

وهنا يقف لوسيان ويخرج من الحجرة دون أن يجيبها،

وتبقى إيلين وحدها للحظات، ثم تتجه إلى الدولاب تفتح درجه

وتتناول المسدس..

قاعة المحكمة...

إيلين تدلي بشهادتها..

إيلين : وذهبت إلى شقة جان في نفس اليوم، كنت أريد

أن أقتل بنجا أنا نفسي، لكن جان رفض، وتولى

قتله نيابة عن لوسيان..

سوزان : (تقاطعها) بل قتله ليخلص منه ويدعم مركزه،
ولو كان لوسيان قد استقال لكنت استقلت أنست
الأخرى، لكن لوسيان لم يستقل ولم تستقلي أنت
الأخرى، لأن جان كان يريدك إلى جواره..
وهنا تضطرب إيلين اشمئزًا من سوزان وتهم بالرد،
لكن جان يسبقها..

جان : إيلين لا.. لا تردى عليها.

ويسود الصمت..

فرانسوا: (إلى إيلين) استمري..

إيلين : وفي اليوم التالي وجد بنجا ملقى ميتاً في أحد
الطرق الزراعية، وبعد ذلك بأسبوعين..

شهادة إيليه عنه فترة ما قبل ثمانية احوام...

شقة سوزان... لجنة الحزب منعقدة، والجميع يستمعون
منهمكين إلى ديليش وقد قارب نهاية خطابه..
ديلش : أما لوناي الذي عثرنا على ورقة منه يشكر فيها
بنجا فقد ثبت أنه أحد رجال الاقتصاد البلجيكيين،

تاريخ حياة طاغية

وقد أرسل بنجا إليه بمعلومات عن ميزانية
الأسرة الواحدة من أسر عمال البترول..

لأنجيه : إذن .. كان بريئاً؟

ويهز ديلش رأسه بالإيجاب ويسود الصمت لحظة بينما
ينظر لوسيان بتقرز إلى جان الذي يجلس جامداً يلف سيجارة
بيده السليمة..

لوسيان : (بصوت مختنق متقطع) إننا.. نحن.

جان : (زاغراً له) لا يجب أن نندم على ما فعلنا، ولو
وازننا بين ما كنا فيه من خطر محقق وما كان
يجب علينا أن نفعله لو وجدنا أننا ما كنا نستطيع
سوى ذلك، وإلا لكننا مجرمين في حق أنفسنا.
ثم إن بنجا قد مات في المعركة، فهل توافقون
على شطب القضية؟

باير : موافق.

ديلش : موافق.

ويهز لأنجيه رأسه موافقاً..

جان : وأنت يا إيلين؟

وتتردد إيلين ويطول تردددها، وعيناها لا تفارق عينيَّ جان، وتهم بأن نقول شيئاً لكنها تمسك نفسها ثم تردف:
موافقة..

جان : حسن. تتبقى مسألة، من الذي أبلغ عن رجلنا؟
وبينما جان يتكلم تقسو ملامح لوسيان ويتطلع دهشاً وخوفاً واستسلاماً إلى جان كما لو كان يقول في نفسه.. وصلت إلى هذا الحد!

قاعة المحكمة...

إيلين مستمرة في الإدلاء بشهادتها..
إيلين : ومن يومها انقطع ما كان بينهما، وكانا يلتقيان دائماً ولكن كنت أحس أن كلاً منهما يود لو أنهى على الآخر.

وبينما تتكلم إيلين تعلو ضجة قوية من الخارج وتزداد عنفاً ثم يطغى ضجيجها على صوت إيلين حتى يغطي عليه ونسمع صوتاً هاتفاً.. الموت.. الموت..
ويستدير الجمهور كله إلى الباب ليدخل منه فجأة نحو مائة

تاريخ حياة طاغية

ثائر مسلحين يهتفون الموت.. الموت.. ويحاول فرانسوا أن يبلغهم لكن الجماهير تسد عليه الطريق فيصرخ فيهم.. فرانسوا: ماذا تريدون؟ أخلوا القاعة..

فيصرخ عملاق منهم يضع قبعة نسائية لها ريش طويل.. نريد رأس الطاغية!

فرانسوا: إننا نحاكمه.. أنتم الآن في حرم المحكمة التي تحاكمه، إنني أطلب إليكم أن تصمتوا وتخلوا القاعة فوراً.. (ثم ينحني إلى داريو هامساً) أسرع يا داريو.. استحضر نجدة وإلا انتهى كل شيء.. ويهز داريو رأسه موافقاً ويخرج وسط هتافات الثائرين، ويصرخ أحدهم.. لا تحاكموه.. لا داعي للمحاكمة.. اقتلوه فوراً!

فرانسوا: قبل أن تقتلوه أوصلوا إليه أولاً إن استطعتم! إنني آمركم مرة أخرى بإخلاء القاعة!

فتعلو ضجة الثائرين أقوى من الأول، وتعدى ثورتهم الحاضرين فنسمع أصواتاً من هنا وهناك تقول: الحق مع الثوار.. اشنقوه.. الغوا المحاكمة.. كفاية هزلاً واشنقوه..

ويصرخ الثائر ذو القبعة: إننا لا ننتقل أوامرنا منك، هيا سلمنا الطاغية.. ثم يشير بيده إشارة واسعة ملوحًا ببندقيته.. دعونا نمر.. هيا يا رفاق.. خذوه.. ويحاول الجمهور إفساح الطريق أمامهم ويتقدمون ببطء، وتقف سوزان وبعض المحلفين، وتتطلع سوزان إلى إيلين في انتصار، وتتهار إيلين عندما يبلغ الثائر ذو القبعة خشبة المسرح أو يكاد... لكن جان ينهض في لحظة صمت نسبي مخاطبًا الثوار...

جان : هل تريدون أن تجعلوا مني شهيدًا؟

لكنهم يردون عليه صارخين.. اخرس يا خائن، أخرسوه.
ويتقدمهم جان من مكان الشهود مواجهًا الثوار والجماهير..
جان : أظنوني أخاف الموت؟ أسألوهم: هل كنت أدافع

عن نفسي؟

وهنا يصوب الثائر ذو القبعة ببندقيته إلى وجه جان وتترجح الجماهير على الجانبين، لكن جان لا يتحرك بل يقول للثائر:

هيا أطلق النار.. سيشهد العالم كله اغتيالك لي،
وسوف أموت سعيدًا...

تاريخ حياة طاعية

ويتردد النائر وينتهز فرانسوا الفرصة فيذهب وينزع
البندقية، ويخاطب النائر..

فرانسوا: جان على حق. أنت لا تعرف أيها الرفيق مدى
ما كنت ستلحق بنا من ضرر لو قتلته هكذا. نحن
لا نريد إنقاذه بل نريد أن نحاكمه معًا محاكمة
عادلة لا ظلمة فيها..

ويسود الصمت لحظة بينما يدخل حرس جدد بقيادة داريو
الذي يقف بين جان والثوار، وهنا يفهم الثوار أنهم قد أضاعوا
الفرصة منهم فيصمتون ويترجعون إلى آخر القاعة بينما
يصرخ النائر ذو القبعة.. أعد إليّ بندقيتي.. ويسلمه فرانسوا
بندقيته فيربت النائر عليها ويقول مهددًا.. وإنا لنحذركم أن
تطلقوا سراحه فما زالت أسلحتنا معنا... يقول ذلك ويخرج
من القاعة، بينما يصطف الحراس الذين استحضروهم داريو
على جانبي المسرح..

فرانسوا: إنني أشكرك.. ظننت أنك تريد أن تموت
اغتيالاً..

جان : غيرت رأيي..

ويعود جان إلى مكان الشهود متجهاً إلى المحامي الذي
ينظر إليه خوفاً ولا يلبث جان أن يصرخ مشيراً إلى
المحامي...

جان : خلصوني من هذا القنر... سادفع عن نفسي
بنفسي..

ويتبادل فرانسوا وداريو النظر بارتياح ثم يقول فرانسوا:
لك ما تريد. (إلى إيلين) استمري...
وتعود إيلين إلى المحلفين وقد ظهر عليها التعب وتقول
بصوت أضعف:

وبعد ذلك شبت الثورة وعيني جان سكرتيرته
وعهد إليّ بإدارة صحيفة "الضياء"، وسار كل
شيء في الأول على ما يرام، ولكن بعد شهر...

شهادة إيليه عن فترة ما قبل ستة أعوام...

مكتب جان في القصر الحكومي.. وإيلين تجلس إلى
منضدة صغيرة ولوسيان واقفاً أمام المكتب، بينما جان يسير
جبهة وذهاباً وفي يده مجموعة صحف يتكلم بصوت يجاهد في
ترقيقه بلا جدوى لأن صوته يخرج رغم ذلك غاضباً..

جان : لا يمكن يا صديقي أن يدوم هذا أكثر من ذلك.
أنت تخرجني وتربكني. طلبت منك مائة مرة
أن لا تخوض في هذه المسائل فلماذا تصر على
الكتابة فيها؟

لوسيان : لأنني أعتقد أنها صحيحة وضرورية.
جان : لم يحن وقتها... لم يحن أبداً... ما زال أمامنا
الكثير.

لوسيان : قول الحقيقة لا وقت له. إنه يحين في كل وقت.
(يهز جان كتفيه بغضب) كنت أثق فيك يا جان،
وكان الكل يثق فيك، لكننا اليوم لم نعد نفهمك..
لم تؤمم صناعة البترول، ولم تجر انتخابات
الجمعية التأسيسية، وكممت الصحافة، هل لهذا
ثار الناس؟

جان : لو أجريت انتخابات الجمعية التأسيسية فأول
قانون ستصدره سيكون قانون تأميم صناعة
البترول.

لوسيان : وهذا ما يتمناه الشعب كله، فلماذا تؤجله؟
جان : لأننا سنتعرض لخطر الحرب لو أممناه.. التأميم
سابق للأوان...

لوسيان : (بنفاد صبر) إجراء الانتخابات سابق لأوانه،
والتأميم سابق لأوانه، وحرية الصحافة سابقة
لأوانها! ما هذا؟ أتريد أن تحكم البلد رغماً عنها؟
جان : ولما لا؟

لوسيان : في هذه الحالة لا تعول على تأييدي ومساندتي
لك.

ويخرج لوسيان من المكتب بسرعة ويتأمله جان وهو
خارج ثم يهز كتفيه ويتهاك على مقعده قائلاً لإيلين:
ألن يساعدني؟ هل يجب أن أفعل كل شيء
وحدي؟ كنت أريده أن يشرح لهم..

إيلين : يشرح ماذا؟
جان : أنه سابق لأوانه....
إيلين : لكنك تعرف أنه لن يشرح شيئاً من هذا القبيل...

تاريخ حياة طاعية

جان : أجل أعرف.. لكن أأست - بحق الله - الزعيم
هنا؟

صحيفة الضياء...

آلات المطبعة تتور وأعداد الصحيفة تظهر الواحدة تلو
الأخرى وتقرأ العناوين التالية بخط كبير...

- مشكلة البترول...

- متى تجرى الانتخابات؟

- البترول مرة أخرى..

- البترول والديمقراطية..

وبينما نرى الصحيفة تخرج أعدادها تباعاً نسمع صوت
إيلين يقول:

ولم يستسلم لوسيان مما أغضب جان وأوغره عليه،

لكنه لم يجرؤ على فعل شيء ضده.. فأقبل على

الشراب من يومها...

مكتب جان...

نرى جان جالساً إلى المكتب يطالع صحيفة الضياء زاعقاً على خادمه:

ويسكي..

ويجرع الويسكي الذي يقدمه الخادم تباعاً..

ثم نرى جان منتصباً يصيح في الخادم: ويسكي.. ويحضر له الخادم ما يريد فيتجرعه، ثم نرى جان في أوضاع مختلفة ومناسبات مختلفة وهو دائماً يطلب الويسكي ويؤتى له به فيتجرعه دفعة واحدة...

ثم نراه في الملابس الرسمية ينهض من مكتبه وكأسه في يده ويسير مباشرة مترنحاً قليلاً حتى مكتب إيلين فيتوقف ويضع كأسه عليه، لكنه لا يقول شيئاً، فتتظر إيلين إليه محرجة فيقول جان:

تربيين كأساً؟

إيلين : كلا.

جان : لماذا لا تشربين؟

إيلين : (في حزن ورقة وقلق) وأنت يا جان؟ لماذا تشرب؟

تاريخ حياة طاغية

جان : (ضاحكاً في مرارة وخبت ثم يقول جاداً) لو استمر
زوجك في حملاته الصحفية سأسجنه .. فاهمة؟

قاعة المحكمة..

ما تزال إيلين تكلي بشهادتها..

إيلين : واستمر لوسيان في حملته، وعندما أصدر جان
قوانين الزراعة، كان لوسيان قد عاد من جولة له
بالريف فعارضها بشدة وعنف..

شقة إيليه ولوسيان..

لوسيان جالساً إلى مكتبه يكتب وإيلين تسير وتقف خلفه تقرأ
من فوق كتفيه ما يكتب ثم تضع يدها على كتفه وتهزه قائلة:
لوسيان.. لا يمكن أن تنتشر هذا الكلام..

لوسيان : ولماذا؟ إن القوانين التي أصدرها غير عادلة
ولا يمكن أن تصدر إلا عن طاغية، ومن واجبنا
أن نصارحه بهذه الحقيقة.

إيلين : وهل ستنتشر هذا المقال؟

لوسيان : أجل في طبعة الغد.

إيلين : لكنه سيثير فتنة؟

لوسيان : في يده أن يوقفها.

تبتعد إيلين عن مكتب لوسيان وتسير في الحجرة جيئة
وذهاباً، بينما لوسيان ينظر إليها في رقة ولوعة.. وبعدها
يستأنف الكتابة من جديد.

إيلين : (متوقفة) أتذكر بنجا؟

لوسيان : أجل، لكن لماذا؟

إيلين : تسرعنا وقتلناه وكان بريئاً.

لوسيان : وما دخل بنجا في ما نحن فيه الآن.

إيلين : أقصد أنك تتسرع في الحكم على جان مثلما

تسرعنا في الحكم على بنجا، وربما كان لجان

أسبابه التي لا تعرفها أنت. أعطه فرصة...

ويغمض لوسيان عينيه ويهز كتفيه ويمزق الأوراق التي

كتبها..

لوسيان : وسوف أعطيه الفرصة، لكن لو ساءت الحال...

إيلين : افعل ما يحلو لك وقتها.
تقولها إيلين بصوت متعب لا مبالٍ..

إحدى القرى...

ترى بيتين يحترقان والجنود يسوقون أمامهم طابورًا طويلًا
من الفلاحين مقبوض عليهم.. ونسمع صوت إيلين:
وساعت الحال... وساعت جدًّا...

مكتب جان...

إيلين تكتب على مكتبها وجان كذلك، ويدخل الخادم متقدمًا
لوسيان فترفع إيلين رأسها تنتظر إليه نظرة يائسة، أما جان فلا
يرفع رأسه. ويسير لوسيان قاطعًا الحجرة بخطوات بطيئة
حتى يتوقف أمام جان الذي يرفع رأسه إليه تواضعًا..
جان : أتدري لماذا استدعيتك؟

لوسيان : أجل..

جان : لن تكتب هذه المقالات، ولن تلومني على الملاء
على ما اتخذته من إجراءات تأديبية اضطررت
إليها اضطرارًا.. تعلم أن صحيفتك هي الوحيدة

التي لا تمر على الرقابة لأنني أثق فيك، ولو
نشرت هذا المقال فسوف أخسر المعركة وأنا
دخلتها لا أعلم نتيجتها...

لكن لوسيان لا يرد عليه...

جان : (بعنف وهدوء) ألم تعد صديقي؟

لوسيان : إنني دائماً صديقك. أتذكر لماذا انضمت إلي
للجنة؟ انضمت لأوقفك في الوقت المناسب،
حتى لا ترتكب عنفاً لا جدوى منه.

جان : إنني ناقشني وعاتبني وأوقفني لكن لا تكتب.

لوسيان : لقد قلت لك رأيي لكنك لا تريد أن تستمع إليه.

ينهض جان ويسير خطوات ثم يتوقف أمام إيلين...

جان : إيلين..

ترتجف إيلين لكنها تتماسك..

جان : إيلين.. قللي له.. قللي له ألا يقتل صداقتنا...

لكن إيلين تظل صامته تنظر إليه في رقة وأسى..

جان : لماذا لا تتكلمين؟

إيلين : وماذا أقول؟ إنه سيفعل ما يراه صوابًا.

يسود الصمت ويخفض لوسيان رأسه ويسند يده على مكتب جان، ويقترب جان منه ويضع يده إلى جوار يد لوسيان..

جان : لوسيان.. تستطيع أن تعود إلى بيتك. لن تصدر صحيفتك غذا.

لوسيان : افعل ما تشاء، لكن المقال سيظهر رغم ذلك، سيطلع سرًا..

جان : لوسيان لو فعلت ذلك..

لوسيان : لكني سأفعل وسيظهر المقال غذا..

إيلين : (مذعورة وقد قامت إليه) لوسيان! جان! هل

جننتما؟ وتقف بينهما. وتتنظر إلى اليدين

الموضوعتين على المكتب، وفجأة ترى اليدين

تتصافحان مثل ما فعلا يوم جلست بينهما على

التل قبل أن ينضم لوسيان إلى اللجنة...

ثم يتلاشى المشهد بسرعة كالحلم وتعود اليدان مفترقتين

وكل منهما قد تصلبت في مكانها على المكتب..

إيلين : لا يمكن .. لا يمكن.

وتمسك إيلين باليدين تحاول أن تجمعهما، لكن جان يسألها...

جان : هل سينشر مقاله؟

لكن لوسيان يستمر صامناً فيزيح جان يده بعنف...

جان : إذن.. فهو يعرف ما ينتظره.

ويستدير لوسيان راحلاً عن الحجرة وتحاول إيلين أن تلحق به مسرعة لكن جان يقول بخشونة:

ابقي هنا.. أنت لا زلت سكرتيرتي كما أظن؟

وتعود إيلين متهاكة على مقعدها بينما يعود جان إلى مكانه ويصرخ في خادمه:

ويسكي...

أحد الكهوف...

ولوسيان مع أربعة رجال يطبع صحيفة من القطع الصغير على مطبعة يدوية، ونرى اسم الصحيفة فإذا هو "الضياء"، ونقرأ المانشيت العريض...

الطاغية يحرق عشر قرى

الشارع أمام بيت إيليه...

نرى أعدادًا من صحيفة الضياء السرية قد تناثرت على الرصيف، وشرطيان يمسكان بالرجل الذي كان يوزعها وينهالان عليه ضربًا. وتشهد إيلين الحادث وهي خارجة من بيتها متوجهة إلى عملها في القصر الحكومي، وفي الطريق تصادف رجلاً آخر يوزع الصحيفة ورجال الشرطة يكادون أن يقبضوا عليه لكنه يطلق لساقيه العنان...

قاعة الانتظار في القصر...

تعبرها إيلين لتدخل مكتب جان وأثناء عبورها ترى الخدم يخفون الصحيفة وكانوا يطالعونها...

مكتب جان...

جان جالسًا إلى مكتبه وإيلين تدخل وتتجه إلى مكانها...

إيلين : صباح الخير يا جان...

جان : صباح الخير...

ويسترسل جان في الكتابة غير عابئ، وإيلين ترتب أوراقها

على الآلة الكاتبة تحاول أن تقرأها، ومن أن إلى آخر تلتفت
بنظرة قلقة إلى جان الذي يواصل الكتابة دون أن يرفع
رأسه... وتعود إيلين إلى القراءة، لكن جان يقول لها فجأة:
إيلين...

ترفع رأسها فتراه لا يزال يكتب.. لكنه بضيف:
سأقابل رئيس اللجنة الزراعية عند الظهر وأريد
تقرير هودريك.

ولا تجيب إيلين وتهز رأسها ويسود الصمت ويحتسي جان
كأسه ثم يضعه بعنف فتقزع إيلين وتقف فجأة..
إيلين : جان!

ويرفع جان رأسه مستطلعًا فيدخل أحد الحجاب...
الحاجب : صاحباً المعالي الوزيران داريو ومانيان...
ويدخل داريو ومانيان ويجلسان أمام المكتب وتجلس إيلين
من جديد تنظر إلى بندول الساعة الذي يشير إلى العاشرة، ثم
تختفي العقارب وتغيم الدنيا يغطيها السواد وتحجب الساعة
ونسمع أصوات جان ومانيان وداريو مختلطة ببعضها وبرنين
الأجراس الذي يقوى فتتفشع الغمامة منفجرة بصوت مو

تاريخ حياة طاغية

وترتمي إيلين على مكتبها ورأسها بين يديها بينما جان ينهض زاعقاً...

جان : إيلين!

ويجري إليها ويشير إلى داريو ومانيان لكي يخرجا..

جان : أرجعا الساعة الثانية...

ثم يمسك إيلين من كتفيها وقيمها فتتظر إليه محذقة وتسأله..

إيلين : جان قرأت المقال طبعاً؟

فلا يجيبها جان لكن يظهر عليه الألم وتستمر إيلين..

إيلين : وماذا ستصنع بلوسيان؟ إذا سجنته فلن يرجعه

السجن عن آرائه، وسينقطع ما بينكما للأبد...

تكلم... ماذا ستصنع به؟ أجب؟ أجب؟

لكن جان يصمت ويبدو عليه التعب.. وتفهم إيلين فتصرخ

باكية...

إيلين : طاغية... قاتل... إني أكرهك!

وتتهض خارجة ركضاً...

قاعة المحكمة...

نرى إيلين صامئة وقد أوجعتها الذكرى وامتنع وجهها...
لكنها تستأنف شهادتها...

إيلين : ومرت سنة لم أشهد فيها جان ولم يحاول هو أن
يراني، ولم أستطع أن أعرف أين ألقى بلوسيان
الذي قلبت الأرض بحثاً عنه، لكن عبثاً حتى
أعيتني الحيلة سنة كاملة. وذات مساء..

شقة إيليه...

تعود إيلين منهكة لكنها تجد سيارة جان البيضاء الكبيرة
تقف أمام باب البيت فتدهش وتصعد السلم بسرعة وتدخل
شقتها لتجد جان يقف وسط الصالون ينظر إليها ببرود والأسى
العميق يلفه.

إيلين : لماذا قمت؟ إنك تخيفني...

جان : (بعد فترة صمت) لوسيان يموت...

وتستد إيلين إلى ظهر مقعد...

جان : سيارتي تحت... خذها واذهي إلى المستشفى..

(متردداً) هل آتي معك؟

تتماسك إيلين ويتصلب وجهها وتمر أمام جان ولا ترد
وتخرج هابطة السلم ثم تركب السيارة...

في المستشفى..

تسير إحدى الممرضات أمام إيلين في دهليز طويل تقطعه
إيلين بخطوات متناقلة كالنائمة، وتفتح الممرضة باب غرفة
لوسيان..

لوسيان نائماً يتنفس بصعوبة مغلق العينين. وتقترب إيلين
وتأخذ بيده فيفتح عينيه ويقول بصوت ضعيف:
أهذا أنت؟ أنت جان؟

وتهز إيلين رأسها بالنفي فيطبق عينيه...

قاعة المحكمة..

إيلين : وتوفي في الساعة الخامسة صباحاً.. (تصمت
لبرهة) هذا هو كل ما أعرفه قدمته لكم.

تتطلع الجماهير لإيلين بعطف فتستدير وتهم بمغادرة القاعة
وتفسح لها الجماهير الطريق لكن جان يناديها فتتوقف..

جان : إيلين!

وتستدير إيلين..

جان : إيلين.. ا بقي..

تتردد ثم تعود إلى المحلفين فينهض جان..

جان : إني سأ...

لكن فرانسوا يشير إليه بيده مقاطعا بينما يستمع لأحد جنود الثورة الذي يهمس في أذنه بكلام...

فرانسوا: أين؟

الجندي : في دار البلدية.

فرانسوا: ومن؟

الجندي : ممثلو النقابات وكل جنود الثورة، وجاءت وفودهم تطلب مقابلتك فوراً.

فرانسوا: حسن.

ثم يستدير إلى الباب ويعلن...

فرانسوا: لقد انتخبني الآن ممثلو الشعب المؤقتون - أعني

ممثلي النقابات وأفراد الشعب المسلحين -

انتخبوني رئيساً للحكومة...

وتهلل الجماهير هاتقين فيرفع فرانسوا يده معيذاً السكون...
فرانسوا : سأواصل هذه المحاكمة حتى النهاية، وسأمثل
الاتهام بوصفي رئيس المحكمة المنتخب... لكني
مضطر الآن إلى تأجيل الجلسة حتى الساعة
الحادية عشر ليلاً..

ويبدأ الهتاف والتصفيق من جديد ويهم البعض بالخروج،
ويخرج فرانسوا من الباب الخلفي ويحيط بعض الثوار بجان
ويخرجون به من القاعة...
ينظر جان مقبوضاً عليه إلى إيلين التي تغادر القاعة في
نفس وقت خروج جان...

مكتب جان في القصر...

يدخل فرانسوا بخطوات مترددة إلى المكتب الضخم
ويستطلع ما حوله بنفس استحياء جان السابق، ثم يتوجه إلى
المقعد ويجلس عليه والخادم يجره له باحترام فيضحك فرانسوا
ضحكة قصيرة...

فرانسوا: ها أنت مرة أخرى.. حسن اذهب وأدخل الوفود

لكن لا تدخلهم كلهم معًا..

ينحني الخادم ويسير إلى الباب الذي تسمع خلفه ضجة
كبرى ويخرج ليدخل من جديد وقد امتعت الضجة وليعلن...
الخادم : وقد عمال مصانع صهر الحديد...

ينهض فرانسوا شاحبًا مضطربًا ويدخل الوفد ويقف أفراده
في نصف دائرة أمام المكتب الكبير..
وفي خارج القصر يتجمهر الناس هاتفين مهللين...
ويجلس فرانسوا محدثًا ممثلي الشعب...

فرانسوا: أكرر عليكم أن سياستنا ستكون السياسة التي
تطالبون بها، أعني السياسة الواجبة والتي ننص
على وقف كل أعمال الإرهاب، وإطلاق سراح
المسجونين السياسيين، وإلغاء الأحكام العرفية في
الريف، وإطلاق حرية الصحافة، ودعوة البلاد
إلى الاقتراع لانتخاب الجمعية التأسيسية. وأعرف
أنكم تطالبوني بإصدار بيان عن سياستنا بشأن
البترول والصناعات الأخرى غير المؤممة.
وسوف أنيع خطابًا بالراديو في منتصف الليل

تاريخ حياة طاعية

أضمنه كل ذلك، وأؤكد لكم أن دم الثوار لن يهدر
عبثاً في أي من هذه المطالب.

لكن خادمه يدخل عليه ويهمس له بكلام في أنه فيقول في
دهشة..

فرانسوا: فلينتظر..

لكن خادمه يهمس من جديد فتبدو عليه الدهشة من جديد
ويتصلب وجهه فينهض ويقول..

فرانسوا: إذن حسن.. (لممثلي عمال الحديد) ابدؤوا يا
رفاق عملكم بأسرع ما يمكن لأن في ذلك
مصلحتنا جميعاً..

ويجيبهم بإشارة من يده وينسحبون، ويدخل الخادم من باب
آخر شولشر، يرافقه رجل أنيق متألق الوجه في الخمسين له
شخصية معتدة... ينحني شولشر لفرانسوا...

شولشر : أنا شولشر رئيس مجموعة شركات البترول..

فرانسوا: إنك شجاع فعلاً أن تشق الشوارع وأنت تعلم أن
كثيرين يمتنون القضاء عليك.

شولشر : (مبتسماً) إنني أعرف كيف أدافع عن نفسي.

(يشير إلى مرافقه) أقدم لك السيد كوت سفير دولتنا.

السفير : (يبادله التحية ويخطو إليه خطوة) لم أشأ انتظار الإعلان الرسمي لتأليف حكومتكم الجديدة فجئت إليكم أؤكد لفخامتكم أن حكومة بلادي قد دالت دائما على أنها يهملها جدا أن تعيش متفاهمة مع حكومة بلانكم، وإني لأرغب أن أبلغ حكومتي بأسرع ما يمكن جوابكم على هذا السؤال: هل صحيح أن من بين التهم الموجهة إلى جان أجيرا تهمة عدم تأميمه لصناعة البترول؟
فرانسوا: صحيح..

السفير : هل نرى في هذه التهمة دليلاً على اتجاهات السياسة المقبلة لحكومتكم بشأن موضوع البترول؟
فرانسوا: (وقد أثير) إن محاكمة جان أجيرا مسألة داخلية بحتة، أما السياسة التي تتوي حكومتي اتخاذها فستعلمون بها مثل مواطنينا عن طريق البيان

تاريخ حياة طاغية

الذي سأذيعه على الأمة عند منتصف الليل.

السفير : لكن متى ترون إعادة المواصلات اللاسلكية مع الخارج؟

فرانسوا: أمل أن تكون قد عادت الآن.

السفير : في هذه الحالة سأتصل بحكومتي وسوف أضطر إلى أن أستاذن فخامتكم في مقابلة أخرى قبل أن نلقوا ببيانكم.

ويضغط السفير على "فخامتكم" ثم ينحني وينحني شولشر ويرافقهما فرانسوا حتى الباب وينادي أحد الحراس... فرانسوا: ثلاث سيارات وخمسة عشر رجلاً مسلحاً ليرافقوا صاحب الفخامة إلى السفارة.

ويهز الرجلان رأسيهما شاكرين لكنه لا يرد عليهما ويتبعهما بنظرة ووجه جامد قلق..

حول قاعة المحكمة...

ال جماهير تنتظر في الدهاليز والقاعات المجاورة، بعضهم ممد نائمًا على الأرض أو مستندًا إلى جدار، ونرى رجلاً

ناعسًا وفاقًا مستندًا إلى بندقيته ومن حين إلى آخر يختل توازنه فيكاد يسقط، وآخرون يأكلون أو يتناقشون جالسين على الأرض. ويفتح باب قاعة المحكمة فيتدافع الجمهور داخلاً ليجنوا لأنفسهم أماكن ويستيقظ النائمون ويجرون إلى القاعة متعثرين بالذين لا يزالون نيامًا.

قاعة المحكمة...

جان يعود إلى مكانه، والقاعة تمتلئ بالناس الذين يحدثون ضجة هائلة، والمحلفون يعودون إلى أماكنهم متعبين منقبضين وقد تكرمشت ملابسهم وطالت لحاهم، ويعود فرانسوا إلى مكانه حليق الذقن منتعشًا نشيطًا، وتجلس إيلين وسط مكان الشهود بجذاء مقاعد الصف الأول، ثم ينهض فرانسوا فتصمت القاعة...

فرانسوا: الكلمة للدفاع..

جان : (ناهضًا) أنا محامي نفسي، وسأدافع عن نفسي بنفسي. يسير حتى مكان الشهود ويبقى هناك طوال المرافعة قريبًا من فرانسوا وإيلين...

جان : (إلى المحلفين) كان من حسن حظكم أنكم

تاريخ حياة طاعية

انتصرتم، لكن ليس معنى ذلك أنني ملزم بتقديم كشف حساب لكم، أو أنني آسف على شيء..
(إلى إيلين) لكن لك ودك يا إيلين أقدم كشف حسابي. لقد أحببت لوسيان حباً لن تستطيعي أن تدركي مداه.

إيلين : (في استغراب) إذن لماذا تسببت في موته؟

جان : أجل أنا المتسبب في موته مثلما تسببت في موت آخرين غيره.. (إلى المحلفين) وها هم أولاء قد قاموا بثورتهم ويريدون قتلي ولكم يسعدني أن يقتلوني! فقد ثقل عليّ حمل حياتي.. ومع ذلك فلست نادماً على شيء.. لا مقتل بنجا، ولا على موت لوسيان، ولا على القرى التي أحرقت، ولو عدت وكانت لي نفس الظروف لفعلت نفس الشيء مرة أخرى..

وتحس الجماهير بأن جان يتحداها فتبدأ تصفر وتضح،
ويزداد جان نهوضاً بقامته متطلعاً إلى القاعة بنظرات حادة...

جان : أجل لست نادمًا على شيء، ولا حتى على
لوسيان..

ويزداد الصفير والاستهجان وفرانسوا يطلب منهم السكون،
لكن جان يستمر ويعلو صوته حتى ليفرض نفسه على الناس
فتضمحل الضجة حتى تخدم أخيرًا ونسمعه يقول..

جان : أيها المغفلون الغلابى، تظنون أنكم ستغيرون
السياسة لكن كل ما ستحصلون عليه هو استبدال
أشخاص بأشخاص.. (يشير إلى فرانسوا الذي عاد
إلى مقعده) وأنت.. أنت ستسير على نفس سياستي
لأنه لا سياسة أخرى هناك لتسير عليها.. هل
كنت تتصور أنني سأقول لك لماذا فعلت كيت
وكيت؟ كلا، إنما أنت الذي ستقول لنا لماذا فعلت
كيت وكيت، وستجد الأعذار لسياستك خلال ثلاثة
أو ستة أشهر من حكمك.. (إلى إيلين وقد ساد
الصمت القاعة صمت مطبق) إنها
قضية العنف قضية الطغيان.. كانت أعمال العنف

تاريخ حياة طاغية

منتشرة في كل مكان في البداية، وكنت أنا خارج ذاتي متأثراً بما يجري فلم أنس أن جدي كان قرصاناً عنيفاً، ووالدي ضرب رجلاً بمدراته حتى قتله، ولم أنس ما كنت أشاهده في القرية والفلاحون السكارى يضربون أطفالهم ونساءهم. وأنا بعد فلاح وفلاح عنيف مثلهم جميعاً، ولكن زراعي انكسرت وأنا في الثانية عشرة، داستها نعال الصبيان وكنا نتشاجر. وقد أرعبني العنف من يومها، فهاجرت إلى المدينة عندما حانت لي فرصة الهجرة، وفي المدينة لم أجد إلا العنف من جديد.

شهادة جاءه منه فترة ما قبل ثلاثة عشر عامًا..

حي الفقراء، شارع صغير فيه، وطابور من النساء أمام محل بقالة، ووجوههن ضامرة هزيلة حاقدة، وبعض الرجال من بينهم جان يرندي عفرينة عمال قديمة وقبعة بالية مسترخية من طول الاستعمال. ونسمع صوت جان يدوي: عنف! يؤس..

ويسقط المطر وتنتشر المظلات فوق الرؤوس، وجان يرفع ياقة بدلتته إلى أعلى، والنسوة يعقدن شيلانهن حول رؤوسهن. ووراء جان امرأة تحمل طفلاً رضيعاً تتحني عليه تحميه من المطر، فيلمس جان كتفيها ويشير إليها أن تعطيه الطفل ويفتح جاكته بدلتته ويدخل الطفل إلى صدره تحت الجاكته. وفي هذه اللحظة يظهر البقال على عتبة المحل ويهز قبضة يده ويعلق على الباب ورقة كتب عليها هذا الكلام "لم يعد هناك ما يباع".

وتخرس ألسنة الناس للحظة ثم تصيح امرأة مغضبة...

المرأة : يا للقدارة! يا للقدارة! يهزأ بنا في قوتنا! فلنقتسم

كفه ولنرحل لم يعد لديه شيء يبيعه صحيح!

ويبدأ الطابور يصيح .. قذر .. خسيس .. غشاش .. ثم ينفرط الطابور ويسيروا كلهم إلى الباب في هرج وهديد، ويطلق أحدهم طوبة تحطم الزجاج فنرى خلفه وجه البقال مفزوعاً. وفجأة تصل الشرطة وهم يعدون ويصفرون حاملين العصي في أيديهم يحاولون بها تفريق الناس لكن الناس يقاومون فتتقلب الشرطة إلى استخدام العنف، يركلون الناس ويلكمونهم بأرجلهم وأيديهم كيفما اتفق ويرون امرأة على الأرض. ويهجم شرطي على جان وعصاه مرفوعة في الهواء

تاريخ حياة طاعية

لكن جان يتحاشاها ثم يهرب ويلف عند الناصية ويتوقف
والطفل يضمه إلى صدره بيده اليسرى ويعود إلى الشارع
فيرى أم الطفل تقاوم شرطين يجرانها في قسوة فيتجه إليهم
مشيراً إلى الطفل..

جان : إنه طفلها.

وينظر أحد الشرطين إلى الطفل مندهشاً ويسأل الأم وما
تزال تقاوم..

الشرطي : أهذا لك؟

الأم : إنه ابني .. ابني.

وعندما يسمع ذلك يمسك الطفل بيده اليسرى كما لو كان
يرفع بقجة وييده اليمنى يجر المرأة مع زميله، بينما يرقبهم
جان دون حركة وهو واقف وسط الشارع، ونسمع صوته
يصرخ..

جان : عنف شقاء وبؤس ومجاعة.. شقاء وبؤس في

كل مكان.. في كل شارع. الفقراء الغلابى

يصرخون أمام الدكاكين.. والاستياء يعم كل

مكان وينتشر كالنار.. وهنا يتحرك الأغنياء

ليحدوا من غضب الناس، مستخدمين وسائلهم
الكبرى..

شارع آخر...

نرى على أحد الجدران صورة تمثل منظرًا هزليًا ليهودي
بأنفه المحدوب ويديه المعروقتين كالمخالب ونقرأ تحت
الصورة.

إنه اليهودي الذي يسبب شقائك.

ونسمع صوت جان يقول: لم أعد أستطيع أن أطيقه... لم
أعد أستطيع أن أتحملة..

ثم نرى جان يسير في شارع بانس ويمر على رجل هرم
غلبان يلبس أقذر ملابس متآكلة ممزقة ويمشي منحنيًا على
عصاه...

ونرى أمام محل مغلق طفلة تنتظر حاملة رضيعًا هزيلًا
غاية الهزال وعلى الناصية صبي أعرج يلعب وساقه العرجاء
موضوعة في جهاز يمنع ثديها، ثم نسمع صوت جان يردد في
قوة.. عنف وبؤس!

تاريخ حياة طاغية

ويتطلع جان إلى الطفل لحظة ثم تغيم عيناه ويجري يأسًا.
إنه في حلم وهو يرى نفسه يجري في الحلم ويصل إلى شارع
من شوارع الأحياء الراقية وتمر أمامه سيارة أنيقة يتقدمها
الحرس من راكبي الموتوسيكلات، والسيارة هي سيارة
الوصي على العرش...

ويخرج جان مسدسه من جيبه ويطلق النار على الوصي
الذي يسقط ويهجم الحرس على جان فيلقي عليهم قنبلة يدوية.
ثم نسمع صوت جان وسط ذلك كله يقول بقوة.. بؤس وعنف!
لم أكن أرى غير العنف سلاحًا ضد العنف...

ويتلاشى الحلم ويجد جان نفسه في الشارع أمام الطفل
الأعرج يتأمله وهو يلعب بالكرة، ثم يسير في طريقه حتى
يدخل بيتًا، ونسمع صوته يقول: وفي هذه الفترة انضمت إلى
إحدى المنظمات السرية..

بعد أيام...

نفس الشارع وأمام نفس البيت نرى جان وثلاثة عمال
أقوياء يتأملون صورة اليهودي ثم يسمعون فجأة من يقول:
الموت لليهود.

ونرى على مبعدة قليلة منهم صيدلية عليها لوحة مكتوب عليها "إيلي كوهين" ونرى جماعة من الرجال والنساء يتظاهرون أمام الصيدلية هاتفين: غشاش.. يهودي قذر.. غشاش.. ويبدو واضحاً أن بينهم بعض محترفي التحريض. تدخل الجماعة كلها الصيدلية ويجرون صاحبها اليهودي الذي يصفر رعباً، ويتقاذفونه فيما بينهم، وفجأة يحول بينهم وبين الرجل شاب أنيق هو لوسيان، يقف ويداه في جيبه ويقول لهم أمراً: لا تمسوا هذا الرجل.. فيجيبه أحد الواقفين باستهزاء.. وهل أنت الذي ستمنعنا؟

لوسيان : أجل سأمنعكم لكن ليس بالقوة بل الإقناع. أيها الرفاق لا تكونوا ضحية خداع يستغله غيركم، فهذا الرجل وأنتم ضحية، وهو يعاني ما تعانيه، وهو شقي مثلكم. أما المستفيدون الحقيقيون فهو لاء يصرفونكم عنهم بتحويل غضبكم إليه...

وعندها يترك اثنان من المحرضين المحترفين الثلاثة اليهودي ويتجهون إلى لوسيان مهددين.. أحدهما : هل انتهيت؟

لوسيان : كلاً لم أنه.. اسمعوا أيها الرفاق..

لكن المحرض يضرب لوسيان بقبضته في المعدة فينحني
لوسيان على نفسه لكنه لا يدافع بل يقف من جديد ويضيف..

لوسيان : أيها الرفاق، ليس صحيحاً أن هناك يهوداً
وأربين، إنما هناك فقراء ومستغلون..

ويسدد الرجل للوسيان لكمة في وجهه فيقول لوسيان وهو
يستقبل اللكمة:

لن أدافع عن نفسي...

ويتشاور جان ورفاقه الثلاثة بالنظرات ثم يهجمون
بسرعة، ويلقون بالمحرضين الثلاثة أرضاً، ويحاول بعض
آخر من الجمهور أن يساعد المحرضين الثلاثة فيندلع شجار
يقطعه طلق ناري فجأة يسقط على أثره اليهودي قتيلًا...
وعندها يهرب الناس في هرج ورعب ودهشة، لكن لوسيان
ينحني على القتيل ويرفعه فيقول له جان:
انتهى أمره...

لوسيان : ما كان لكم أن تضربوهم...

جان : كيف؟ لو لم نتدخل لانتهوا منكم أنت أيضاً؟

لوسيان : بسببك أطلقوا النار. لو لم تتدخل لما استثرتهم.

العنف يولد عنفاً.

جان : (في جمود لكن باهتمام، فقد أثار لوسيان

اهتمامه) هل ننقله إلى صيدلية؟

ويحملان الجثة بينما نسمع صوت جان يقول في قوة: ومن

نلك اليوم صار لوسيان صديقي...

أحد الطرق...

نرى جان ولوسيان ينتزهان ونسمع صوت جان يردد..

كان صديقي وأخي ولكنه لم يكن مثلي..

يتوقف لوسيان ليوصل مناقشته..

لوسيان : الشرط الأول لتكون إنساناً هو أن ترفض

الاشتراك بشكل مباشر أو غير مباشر في أي

عمل من أعمال العنف.

جان : (بتعالٍ ناشئ من قلة تجربة لوسيان لكن

بإعجاب به كصديق) لكن كيف تدفع العنف إن

لم تدفعه بالعنف؟

إذا ألغيت العنف كوسيلة مقاومة فماذا يتبقى لك؟

لوسيان : كل الوسائل.. بالكتب.. بالصحف.. بالمرح..

جان : هذا تفكير بورجوازي. إنك بورجوازي يا

لوسيان فأبوك لم يضرب أمك أبدًا، ولم تسلم

الشرطة جسده من الضرب، ولم يسرح مع

العمال دون سبب أو إخطار سابق إلا لأن

المصنع يريد تخفيض عدد عماله. إنك لم تعان

العنف ولم تتعرض له فلا تستطيع أن تحس به

كما نحس نحن به.

لوسيان : لكن تعرضك له ومعاناتك منه يجب أن تكون

سببًا يدعوك إلى كراهيته؟

جان : صحيح.. لكني مع ذلك لا أستطيع لأن العنف

صار مني، دخل كياني وصار جزءًا منه...

غرفة المحكمة....

جان : (إلى إيلين) وعندما تعرفت بك أحسست بعنفي في

الحال، وكان يخيفك، أليس كذلك؟

ولا ترد إيلين فيلح عليها..

جان : قولها.. اعترفي أن عنفي كان برعبك..

إيلين : (مترددة لكنها تقول في صوت خفيض) كنت

أعتقد أنني كنت أخافك..

يتبادلان النظرات وينحسران بعالميهما كل في الآخر فلا

يعود هناك غيرهما في القاعة...

إيلين : لم تكن تفرعني، إنما كنت تثير كبريائي... كبرياء

الأنثى المفعمة بالحياة.. كنت أحب قوتك ولكني

رفضت الاستسلام..

جان : وأحببتك من أول يوم... أحببتك أكثر من نفسي،

وأعطيتك اللوسيان لأنني كنت أحبه كأخي.. ولينك

تعرفين ماذا كان يجري في خاطري ليلة زفافكما.

منزعة مع سوزان...

نرى جان وسوزان واقفين إلى جوار السلم وقد انحنت

سوزان تضمد يد جان المجروحة، بينما جان ينظر صوب السلم

تاريخ حياة طاغية

الذي صعدت منه إيلين ولوسيان، وفجأة تضطرب عيناه ويبدأ حلمًا من أحلام اليقظة.

إنه يدفع سوزان عنه ويتناول سكينًا من فوق المنضدة ويصعد السلم ويفتح باب غرفة لوسيان وإيلين، فيرى لوسيان منحنيًا على إيلين الممددة فوق السرير يعانقها وترتفع ذراع جان المجروحة تحمل السكين ليهوى بها على لوسيان، وعند ذلك يتلاشى الحلم ويرى جان نفسه ما يزال تضمد له سوزان جرحه وهي تتأمله بوله وحب... ثم يدير جان عينيه من على السلم وينظر إلى سوزان فيحس عندئذ فقط بوجودها...

ونسمع صوته يقول: كانت إلى جوارى امرأة.. مجرد أنثى... ثم ينحني جان فوق سوزان يعانقها بوحشية...

غرفة المحكمة...

جان وإيلين ما يزالان متقابلين متناظرين، وسرعان ما تخفض إيلين عينيه وتتشاغل باللعب بثنيات ثوبها بينما ينتصب جان ويسير جيئة وذهابًا وهو يتكلم، لكننا لا نعلم من يخاطب، المحلفين؟ أم نفسه؟ أم الجماهير؟ لأنه لم يكن يتطلع إلى أحد وحديثه يتدفق منه.

جان : وعرفت أيامها ما يجب عليّ أن أفعله، كان

مستغلو البترول أقوىاء... وكانت وراءهم دولة
كبرى تقف في مواجهة دولتنا الصغيرة، وأيامها
أنركت أن الذي يهاجمهم لا يجب أن يهاجمهم
مباشرة، بل عليه أن ينتظر، فحالة البلاد تهىء
لثورة، وعليه أن يبقيا كذلك إلى أن تنهيا الفرصة
لإشعالها، ويحين يوم تصفية الحساب.. وكانت
يادي طاهرتين في الأول، طاهرتان مثلما كانت يدا
لوسيان طاهرتين، ولم أكن سعيدًا إنما كنت أحس
بنفسي قويًا ونظيفًا... إلى أن كان اليوم الذي جئت
إليّ فيه تدقّين على بابي.

شقة سوزان...

جان منهمكًا في غرفة الغسيل ويدق الباب ويسمع من
الحجرة الأخرى نقاشًا حادًا بين سوزان وامرأة أخرى فينهض
عندما يسمع سوزان تقول.. "قلت لك إنه ليس وحده" فيفتح جان
الباب ويرى إيلين وسوزان وجهًا لوجه، وقد احتتم وجه سوزان
كرهاً واضطربت إيلين، فيقول مخاطبًا سوزان بلوم:

تاريخ حياة طاعية

ماذا جرى يا سوزان؟ تعلمين أن لا أحد عندي،
وأني دائماً موجود ما دامت إيلين هي التي
تطلبني..

سوزان: أجل، ما دامت إيلين هي التي تطلبك طبعاً..
جان: (يبدو غاضباً لكنه يهدأ) إيلين أو أي عضو من
أعضاء اللجنة... تعالي يا إيلين...

ويفتح الباب أكثر لتدخل إيلين وتتحرك سوزان لتلحق بهما
لكنه يوقفها ويقول لإيلين:

جان: تريدني طبعاً يا إيلين لمناقشة شؤون اللجنة؟
إيلين: أجل.

جان: (معتذر لسوزان) آسف يجب أن تتركينا وحدنا.
فتغلق سوزان عليهما الباب بنفسها غاضبة ولا تقول شيئاً.
أما جان فيقبل على إيلين البادية الاضطراب بشكل ملفت...
جان: ماذا جرى؟

ولكنها لا تجيب فيمسكها من كتفيها ويهزها..

جان: قلولي ماذا جرى؟

إيلين: أين بنجا؟

جان : (يرتد مذعورًا) بنجا؟

إيلين : أجل أين هو؟

ولا يجيبها جان لكنه يتجه إلى الباب ويفتحه فجأة فيجد سوزان خلفه تسترق السمع من ثقب المفتاح. وتتراجع سوزان وهي تتطلع بحقد إلى جان الذي يغلق الباب بعنف ويعود إلى إيلين..

جان : بنجا؟ هل لوسيان الذي أرسلك؟

إيلين : كلا.

ويتطلع إلى حقيبة يدها التي كانت تتلهى بها ويقول...

جان : إذن فهو ليس لوسيان.. (ثم فجأة) أعطني حقيبتك؟

إيلين : كلا لن أفعل.

ويستولى على الحقيبة بالقوة ويخرج منها مسدسًا ملفوفًا بقطعة قماش ويتنفس في ارتياح...

جان : آه... إذن فلوسيان لا يريد أن يقتل بنجا؟

إيلين : جان.. لوسيان لم يتراجع لأنه جبان..

جان : (بمرارة) لا يريد أن يوسخ يديه، أما أنت فلا

يهمك.

إيلين : أجل لا يهمني. (وتخفض رأسها) إننا واحد أنا وهو.

جان : (يلوي فمه ويبسط قطعة القماش يتأمل المسدس بضحكة مبتسرة) لكن هذا المسدس لعبة... ما الذي ستصنعين به؟

إيلين : قل لي فقط أين بنجا. هذا كل ما أطلبه.

يتجه جان نحو المنضدة ويضع المسدس عليها ثم يرجع إلى إيلين مبتسمًا بمرارة..

جان : هل تعتقدين أن القتل سهل؟ (لا تجيب) ثم لو قتلتيه أظنن أنك وهو ستظلان واحدًا، أنت هو وهو أنت؟ (ينظر إليها بألم ويقول همسًا وبيأس) لماذا أنا؟ لماذا أنا دائمًا؟ أليس من حقي كذلك أن تظل يداي نظيفتين؟ إنني لا أريد... لا أريد أن أقتل أحدًا.. إنه واجبه. هو الذي كلف به... (ينتفض ويقترب منها ويقول برقة) إيلين، هذه

قضية رجال، ثم أن المسألة ستكون خطيرة لو
خابت طائفتك وأخطأت الهدف...

إيلين : لن أخطئ.

جان : قد تخونك أعصابك. ثم أظن أنه من حقي أن
أمنعك...

ويبتسم لإيلين ولكننا نسمع صوته من غير أن يتكلم هو..
وهو يقول: لا أريد أن أقتل.. أكره العنف، لا أريد، لا أريد!
ويضع جان يده على كتف إيلين..

جان : عودي إلى بيتك الآن.

إيلين : هل ستذهب؟

جان : (باسطاً يديه) إن يديّ متسختان.. اتسختا قبل
ذلك..

إيلين : ستقتله من أجلي.. ستقتله من أجلي يا جان؟

وتنظر إليه بانفعال وتقترب منه ويهمان بالعناق لكن جان
يغضب على نفسه ويزوغ..

جان : كلا.. بل من أجل لوسيان...

غرفة المحكمة...

جان : (مخاطبًا إيلين) كانت المهمة أفسى مما ظننت، فقد كان بنجا في اجتماع سري وكان سيعود من طريق مقعر فوقفت أنتظره.

طريق خلوي...

الطريق خالٍ وجان واقفًا مستندًا إلى شجرة فيسمع من بعيد صغيرًا مرحًا مقتربًا، ويعتدل جان ويمعن النظر في الشخص المقبل.. إنه بنجا..

ونسمع صوت جان...

جان : كان أسلم لو أنني قتلتَه دون أن يراني، لكنني أردت أن أكلمه أولاً قبل أن أطلق عليه النار...

يتقدم بنجا هادئًا وهو يصفر وعندما يقترب من الشجرة يخرج إليه جان فيتوقف بنجا..

بنجا : من هناك؟ (ويصوب ضوء مصباحه نحو جان)
أهذا أنت يا جان؟ أرعبتني. حسبك الشرطة تكمن لي.

(ثم يستأنف سيره ويلحق به جان) أنت عائد إلى

المدينة؟

(فلا يرد جان) ماذا بك؟

جان : بنجا إنك واشِ خائن... أسلمت كادلييه للشرطة.

يتوقف بنجا ويتطلع إلى جان بدهشة ويتوقف جان فيرى
بنجا المسدس في يده فترتسم على ملامحه مشاعر الارتياح
ويزفر قائلاً لجان الذي يتأمله بدهشة...

بنجا : إذن فهذه هي الحكاية! من ثلاثة أشهر أشعر بأنكم
ترتابون في- ثلاثة أشهر وأنتم تلاحقونني، وأنا لا
أفهم، لكني اليوم فهمت وسينتهي كل شيء.

اسمع... أنا لست واشياً خائناً وأقسم لك برأس
زوجتي وأطفالي.

جان : اثبت لي ذلك..

بنجا : كيف؟

يتطلع في وجه جان فيدرك أنه قاتله.. فيضيف..

- لقد عشت للجنة وحدها، ومع ذلك فهاكم اليوم

تاريخ حياة طاغية

تحكمون عليّ دون أن تسمعونني.. حسن.. افعل ما
تريد.

ويبدو على جان العجز عن الجواب ووجهه قد اختلط فيه
الآلم بالعجز بالرقّة..

بنجا : افرح أيها القدر فلن أعوفك بعد الآن...

ويرفع جان مسدسه ... فيضيف بنجا..

- أنت مدبر كل ذلك؟ ولكي تنتهي الرواية حرصت على

أن تقتلني أنت نفسك؟

ولا يجيبه جان وإنما يطلق النار مرتين فينحني بنجا لكنه لا

يسقط وإنما يقول ساخرًا:

- أيها المجرم.. صدقني إني لا أحب أن أكون مكانك

عندما تعلم أنني كنت بريئاً..

ويطلق جان رصاصة أخرى فيسقط بنجا ويتمدد وجان

يتأمله جثة طريحة عند قدميه...

قاعة المحكمة...

جان أمام إيلين يتمعن بين قدميه ونسمع صوته يقول:

- وبعد شهر علمنا أن بنجا كان بريئاً...

شقة لوسيان وإيليس...

لوسيان جالسًا عابسًا وجان أمامه صامتًا حزينًا.. ثم تمتد يد جان إلى كتف لوسيان الذي يزيحها فينظر إليه جان بلوم وألم...

جان : هل أخيفك يا لوسيان؟

لوسيان : يداك ملطختان بالدم.

جان : صحيح أن يديّ ملطختان بالدم. ولكني لطختهما

لأجنبك تلطيخ يديك. تظن أنني ما كنت أنا أيضًا

أحب أن أحتفظ بيدي نظفتين؟

لوسيان : أنا لم أطلب إليك ألا تفعل...

ولا يرد جان وإنما يتطلع إليه متعبًا..

قاعة المحكمة...

جان : (إلى إيلين) ومن يومها لم أعد نفسي. تغيرت.

وقررت في الأول أن أناضل بسلاح العنف، وكنت

أمل أن لا أستخدمه إلا ضد أعدائنا.. وأدركت أنني

منسحق وأن أسنان القدر تطبق عليّ، وأنني لأنقذ

تاريخ حياة طاعية

القضية يجب أن أضحي حتى بالأبرياء أحياناً..
ولم أستطع أن أنال حبك بل فقدت صداقة لوسيان،
وبدأت سوزان تكرهني، وأحسست بنفسي وحيداً،
وأنى عدت أضيق بنفسي، وليت لك استطعت أن
تساعديني...

إيلين : (مضطربة) ما كنت أعلم يا جان.. ما كنت أعلم.

جان : هل قال لك لوسيان إن سوزان كتبت له؟

إيلين : سوزان؟ كلا...

جان : قبل أن تقوم الثورة وجدت مسودة خطاب في درج

المكتب بخط سوزان تتهمنا فيه أننا نخونهما، لكنها

لم يحدث أن ذكرت لي شيئاً من ذلك.

إيلين : ولم تفتاحني أنا أيضاً في شيء من ذلك.. لكن

لوسيان لا أعتقد أنه صدقها، بل أقسم أنه لم

يصدقها!

جان : ربما، لكن لوسيان لم يفتاحني كذلك ولم يقل لي

شيئاً.

(إلى سوزان) واعلمي أنني هجرتك لهذا السبب
ولم أعد أطيق رؤيتك بعدها.

ويمتقع وجه سوزان وتطبق على شفيتها لكنها لا تستطيع
أن ترد فيستطرد جان شبه مغضب:

- صحيح أنك كنت تحبينني يا سوزان، لكني لم أكن
صديقك، ما كنت تحسن أنني صديقك. صحيح أنك
كنت تقطعين لي اللحم في الطعام وكنت تعتنين بي
كممرضة، ولكني كنت أحس دومًا أنني وحيد وأنا
بقربك، لم أكن أريدك، وكان خطأ ذلك خطأك
وخطأي أيضًا.

(ويصمت للحظة ثم يقول لإيلين) ثم قامت الثورة ولم يكن
وقتها قد حان، لكنها قامت مبكرة جدًا، ومن ثم فكان عليّ أن
أنظمها ما دامت قد قامت، ولقد فعلت وكسبناها وطردنا
الوصي على العرش...

ملكب جاه في القصر...

جان ومانيان وداريو وفرانسوا واقفون وسط الغرفة يتناقشون بعد احتلال القصر، وخدام جان في زاوية يرقبهم، والجماهير تحت النوافذ تضج وتهتف.. تحيا الثورة.. يعيش آجيرا... آجيرا... آجيرا!

وبينما داريو ولوسيان ومانيان مبهجون متحمسون نجد جان مقطبا وداريو يربت على كتفيه ويشير برأسه إلى النافذة.
- اذهب إليهم...

جان : حاضر.

يتطلع إليه داريو ومانيان في دهشة...

مانيان : جان... ألسنت سعيدا؟

جان : (يهز رأسه) حدثت الثورة بأسرع مما يجب ومبكرة جدًا، لكن الأصعب هو ما بعدها، ومع ذلك علينا أن ننقذها الآن.

تعلو هتافات الجماهير...

داريو : يجب أن تخطب فيهم...

يتردد جان ولكنه يقر قراره، ويذهب إلى النافذة وفي نفس

اللحظة يدخل حاجبه ويصل إليه ويهمس في أذنه شيئاً فيقول
جان:

- كنت أتوقع ذلك... سأذهب.

ويمضي خلف الحاجب إلى غرفة انتظار صغيرة يجد فيها
السفير كوت الذي ينحني أمامه باعتداد مهذب...

- أنت رئيس الحكومة الجديدة؟

- أجل وأنت سفير حكومة...

- أجل... هل أستطيع أن أجلس؟

- تفضل.. (مشيراً إلى كرسي) اعذرني نسيت.

- (متطلعاً حوله) كان هذا القصر مسكن الوصي.

- ادخل في الموضوع رأساً.

- (يتنحج) كلفتني حكومة دولتي أن أبلغكم أنها لا تتوي

التدخل في شؤونكم الداخلية، وبالتالي فهي تعترف

بحكومتكم يا صاحب الفخامة...

- عظيم.

- لكن هناك نقطة ينبغي أن نستوضحها لأنها تمس

تاريخ حياة طاعية

مصالح رعايانا إذ يجب أن يظل مفهومًا أنكم
ستحافظون على الوضع القائم فيما يتعلق بامتيازات
البترول.

- سأحيطك علمًا بما سنقرره في الوقت المناسب.
- إن حكومتي ستعتبر كل ما يمس أملاك رعايانا بادرة
عدوان، ودعمًا منها لطلبها فقد حشدت خمسة وثلاثين
فرقة على طول الحدود بيننا وبينكم.
- (ينهض متطلعًا إلى السفير ببرود) إنني سعيد
باعتراف حكومتكم بالنظام الجديد الذي اختارته
بلادي، وأرجو أن تؤكد لحكومتك أننا نود أن نعيش
مع جميع جيراننا في صداقة وود.
- وينحني جان للسفير ويقفل راجعًا إلى مكتبه حيث
كانت الجماهير ما تزال تهتف تحت النوافذ فيسرع
إليه داريو.
- أرجوك يا جان.. اظهر لهم.
- ويسير جان إلى الشرفة فيعلو تهليل الجماهير

ويحييهم بيده ويعود متعبًا مضطربًا...

مانيان : (معاتبًا) كانوا يتوقعون أن تخطب فيهم فلماذا لم تفعل؟

جان : ليس عندي ما أقوله لهم!

قاعة المحكمة...

جان : ولم يكن عندي ما أقوله لهم، وكذلك لم يكن عندي ما أقوله لك يا فرانسوا عندما جئتني على رأس وفد عمال البترول... فالأجنبي لم يكن ينتظر إلا الحجة التي يتدخل بموجبها لسحقنا، وكان علينا أن نصمد، وما كان يجب أن نمس مسائل البترول حتى ننقذ الثورة أولاً.

فرانسوا: (متطلعًا إليه في برود) وكم من الوقت كان يلزمك للصمود؟ ما الذي كنت ترجوه من الصمود؟

جان : كنت أرجو الصمود بضع سنين، فبعد سنتين أو ثلاث ستنشب الحرب بين دولتين كبيرتين تعرفهما

تاريخ حياة طاغية

جيدًا، فهذا أمر حتمي لا مناص منه، وفي هذه الحالة ستسحب القوات التي تهدد حدودنا، وعندئذ نتطلق أيدينا.

فرانسوا: لكن لو حدث وغزت تلك القوات بلادنا لتطمئن على مواردها من البترول وتدفقه إليها؟

جان : كنا نستطيع صد قواتهم، لأن ما يتبقى منها لغزونا سيكون ضئيلاً.

فرانسوا: وحتى يحدث ذلك كان عليك أن تقم نظامًا ديمقراطيًا في البلد لكنك لم تفعل؟

جان : لو فعلت لكان أول قانون تصدره الجمعية التأسيسية هو تأمين البترول، ومعنى ذلك غزو بلادنا وتصفية الثورة.

(إلى إيلين) وبدؤوا يكرهونني... كلهم... العمال والفلاحون... كل أصدقائي... حتى لوسيان... لكن كان يجب أن أصمد خمسة أو ستة أعوام ووسط كل هذه الكراهية (مشيرًا إلى الجمهور)

أجل وسط كل هذه الكراهية... انظروا الكراهية
في أعينهم.. كرهوني خمس سنوات... وكنت
أعرف أنهم يكرهونني، لكني آليت أن أحمل
العبء إذ ما كان هناك يد من ذلك. وكان عليّ
أن أصمد... وهكذا بدأت أشرب.

هكّج جاه في القصر...

جان يشرب كأسه ويضعه فارغاً وأمامه لوسيان وداريو
ويلين على مكتبها...
لوسيان : (إلى داريو) هيا اذهب إنه لن يستطيع أن
يطردني كالخادم..
ويخرج داريو ويبقى لوسيان...

لوسيان : أرجوك... افهم... لن تستطيع أن تفرض هذا
التطور الخطير على فلاحينا في يوم وليلة؛ هذه
مسألة تحتاج إلى سنوات من الدعاية والتّحضير
النّفسي والتّوعية لحملهم على قبول التّصنيع

الزراعي.

جان : لكن معنى ذلك أن المجاعة ستفترس البلد في ستة أشهر.

لوسيان : أمم البترول تجد المال اللازم لشراء القمح.

جان : لا أستطيع.

يتطلع جان أمامه في حلم يقظة فيرى دبابات العدو تكتسح السهول والحقول... بينما صوت لوسيان يقول:

- أتوسل إليك يا جان.. الوقت لم يفت.. أرجوك.. غير

سياستك.

لكن جان لا يزال في حلمه ويقول متعباً..

- لا أستطيع لا أستطيع..

وتختفي الدبابات من أمام عينيه ليحل محلها وجه لوسيان الغاضب..

- في هذه الحالة لا تعول على تأييدي لك.

ويخرج بسرعة فيضرب جان المنضدة بكأسه الفارغ ويسرع الخادم فيملأه، وينهض جان ويسير ثم يعود ويجلس متطلعاً إلى إيلين منتظراً العون ونسمع صوته مدوياً.

- العنف.. العنف دائماً.. كان يجب أن أنقذهم بالقوة
فاضطرت إلى نشر وسائل الزراعة الصناعية في
الريف بالقوة... ماذا فعلت يا إلهي حتى يحكم عليّ
بأن أعيش في العنف؟ ما الذي أستطيعه غير ذلك؟

قاعة المحكمة...

جان : (متجهاً إلى إيلين محدقاً) ماذا كنت أستطيع أن
أفعل؟ ليتك استطعت أن تساعدني؟ ليتك فعلت!
ألم تفهمني أنني كنت أستجد بك؟ ألم تقرئي ذلك
في عيني؟

إيلين : لكن لماذا لم تقل لي؟ لماذا لم تتكلم؟

ملك جان...

جان جالسا والكأس في يده لا يزال ينظر إلى إيلين منفعلاً
ونسبح صوته...

- لأنني كنت أريدك، وكان حبي لك يضمنيني. كنت أتمنى
أن احتضنك إليّ.

تاريخ حياة طاغية

يقترّب الخادم من جان ويهمس في أذنه شيئاً ثم يشير له
إلى الساعة فنسمع صوت جان:

- وحصلت لذلك على نساء أخريات...

يتبع جان الخادم إلى حجرة جانبية ملحقة بالمكتب فيجد حساء
مثيرة نقول له فوراً:

- يا صاحب الفخامة إنها لسعادة كبرى أن أحظى

بقربك... لا أستطيع أن أصدق... يبدو أنني في

حلم...

ويتطلع إليها جان بابتسامة ساخرة متألّمة ويخرسها بقبلة
على فمها..

ونسلم صوت جان يقول:

- النساء! والويسكي! ثم هذا الكابوس الحي. كابوس

دبابات العدو تكتسح الوديان والسهول...

قاعة المحكمة...

جان : "إلى إيلين" والباقي تعرفينه... دمر الفلاحون

الجرارات وأحرقوا المحاصيل وكنت أعرف ماذا

يجبرهم على الرضوخ. أن أحرق بعض القرى
وأعتقل الآلاف حتى أحطم ثورتهم، فالبلاد لا تزال
بين أسنان القدر، وكان يجب الانتظار ست
سنوات... لكن لوسيان طبع منشوره المري...

مكتب جان في القصر...

جان جالساً إلى مكتبه وأمامه وزير العدل يلوح بنسخة من
صحيفة الضياء السرية صائخاً..
- هل قرأت؟ يجب أن تشقه!

يضرب جان المكتب بيده وبذهل الوزير ويتوجه إلى النافذة
ثم يشير إلى جان الذي يتبعه ويتطلع الاثنان من النافذة فيريان
غلاماً على الناصية يوزع الصحيفة السرية على المارة..
مانيان : هذا ما يجري في كل البلد، وعمال البترول
ينتظرون هذه الإشارة ليهبوا ثائرين فيجب إعادة
النظام وإخافة هؤلاء العمال...

جان : (صامتاً ينقر على النافذة ثم) اعتقل لوسيان..

فنسمع جمهور المحكمة يزجر غاضباً... ثم...

قاعة المحكمة..

الجمهور يصفر ويستكر وجان يتطلع إليه غاضبًا لكن
دون أن يرى شيئًا ثم يلتفت إلى إيلين...
- لم أغمض عيني سنة كاملة.. لم أنق النوم...
ويتوقف وعينه على إيلين ثم تغيمان في الذكرى...

غرفة نوم جان في القصر...

جان مستلقيًا على السرير يتقلب ثم نسمع صوته يقول:
- العنف... العنف...
وتتابع الصور أمامه.. فيرى نفسه مع لوسيان يرفع
اليهودي القليل.. ونرى معه بنجا يسقط مقتولاً يرمقه بكرهية
ونسمعه في نفس الوقت يقول: العنف...
ونرى معه قرى تحترق والمدافع الرشاشة تنطلق والدبابات
تكتسح الحقول وصوته يردد مدويًا: العنف...
وفجأة ينهض مناديًا..
- كارلو... كارلو...
ويدق الجرس ويحضر الخادم فيأمره قائلاً:
- ويسكي..

- ويحضر له الويسكي فيقول له:
- اذهب استدع لي داريو حالاً.
 - ويعب كأس الويسكي ويصب لنفسه الكأس الثاني.
 - ثم ينهض يرتدي الروب ويجلس على السرير ويدخل الخادم ومعه داريو فيسأله جان:
 - هل قابلت لوسيان؟
 - أجل رجعت من عنده من ساعتين فقط.
 - ولماذا لم تأت لرؤيتي؟
 - ظننتك نائماً؟
 - إني لا أنام. قل لي، هل أبلغته عرضي؟
 - قلت له إنك ستفرج عنه إذا تعهد بالتزام الهدوء.
 - وبماذا أجاب؟
 - قال إنه سيواصل الكتابة ضدك في نفس اليوم الذي سيخرج فيه.
 - (بغضب) إذن هيا اذهب.
 - فلا يتحرك داريو...
 - قلت لك اذهب .. اذهب بحق الله...

تاريخ حياة طاغية

ويخرج داريو ببطء ويصب جان لنفسه كأساً أخرى يعبها
عباً.

قاعة المحكمة...

جان : (لإيلين) وذات يوم قيل لي إن لوسيان مريض
فذهبت لأراه...

المعتقل...

تتوقف سيارة جان البيضاء أمام المعتقل ويخرج منها جان
فيحييه ضابط يقوده إلى مستشفى المعتقل ثم إلى لوسيان نائماً
وحده على سرير في ركن وقد هزل ولمعت عيناه، ويلتفت
جان إلى الضابط..
- دعنا وحدنا.

ويخرج الضابط فيحمل جان كرسيًا ويجلس قرب لوسيان
الذي يبتسم له ابتسامة شاحبة فيقول له جان بصوت مختنق:
يا أخي الصغير...

لوسيان : كنت أكرر على نفسي أنك ستزورني.

جان : هل تشعر بالأم؟

- لوسيان : كلا.. لكني لم أعد أتحمل.
- جان : (يمسك بيده) هل تكرهني؟
- لوسيان : كلا إنما أرثى لك. لو كنت مكانك لاحتفظت
بيدي نظيفتين حتى النهاية.
- جان : ومع ذلك فلست أسفأ على شيء.
- لوسيان : (يسحب يده من يد جان) يدك مخصبتان
بالدم..
- جان : أعرف ذلك.. لكن... أتعتقد أنني ما كنت أود أنا
الآخر أن أبقى نظيفاً؟ لو كنت مثلك لكان
الوصي على العرش قد عاد إلى الحكم. النظافة
في الحكم ترف، وأنت استطعت أن تتمتع بهذا
الترف لأنك وجدتي قربك ألطخ يدي من أجلك
ونياة عنك.
- ويفتح الباب ويدخل مسجونان فيعتدل جان في جلسته بينما
يحمل المسجونان مزودين من الطعام ولا يلبث أن يلحق بهما
حارس يصرخ فيهما...

- اخرجا...
- ويخرج المسجونان مغتاظين...
- وينحني جان على لوسيان يسأله...
- ما هذا؟
- رفيقان من رفاق المعتقل... سيأكلان في الخارج لأنك
جئت تزورني، (يخفض جان رأسه) ليس من أجلي،
بل من أجلهم أحمل عليك مطالبًا بالإطاحة بك.
- (يرفع رأسه غاضبًا نوعًا ما) قلت لك إنني لست آسفًا
على شيء. كان يجب إنقاذ الثورة فلو أُممت البترول
لقامت الحرب.
- (بدهشة) لماذا لم تقل ذلك للناس؟
- ما كنت أستطيع.
- إذن هل كان يجب اعتقال كل هؤلاء الناس لإنقاذ
الثورة؟
- قل لي، أعتقد أن عدد المعتقلين لن يكون أكثر مائة
مرة لو أن الأجنبي أعاد الوصي على العرش إلى

الحكم؟ كان عليّ أن أختار بين أهون الشرين. (ينهض ويسير رائحًا غاديًا إلى جوار السرير) إن البلد كله ضدي، وفي خلال سنة أو اثنتين سيقوم انقلاب ضدي، وسأعدم رميًا بالرصاص.

- ماذا تعني؟

- أعني أنني أكون قد صمدت بالبلاد خمسة أعوام، أما الذين سيخلفوني فلن يستطيعوا اتباع سياسة غير سياستي. الثورة وحدها هي التي ستتقدّم، وسيعود المعتقلون، ويمكن بعد ذلك تأمين البترول وإسعاد الناس، لكن ذلك كله سيكون بفضلتي.. بفضلتي أنا الطاغية الذي لا أزال ملعونًا منهم.. وأنت يا لوسيان ماذا فعلت؟ وماذا يجدي التحدث عن العدالة إن لم يكن مشفوعًا بمحاولة تحقيقها.

- (بيأس) لماذا تقول لي ذلك؟ أترينني أن أموت يائسًا؟

- كلا، كلا يا لوسيان. (يجلس إلى حافة سريريه) أتظن أنني لست يائسًا من مستقبلي. لقد تحملت كل شيء...

تاريخ حياة طاغية

تحملت مسؤولية جميع الذين ماتوا وقتلوا، حتى

مسؤولية موتك.. ولهذا فإنني أضيق بنفسي...

- جان أعتقد أنني أفهمك الآن. (يرفع جان إليه رأسه)

هل كانت رغبتني في البقاء طاهرًا لا أمارس الشيء..

عن رغبة في شيء؟

- لا أظن... في اعتقادي أن الحياة لا بد أن تضمنا نحن

الاثنين، لا بد أن يوجد فيها أناس مثلي وأناس مثلك.

إننا يا لوسيان عملنا ما اسطعنا، ومع ذلك فذات يوم

سيغزون القصر وسيحكمون عليّ بالإعدام، وإنني

لأكاد أتمنى ذلك. لا يهمني أن أموت، لكن يهمني

شيء واحد، أن تبرئني أنت؟

- (يصافح يده بقوة) لقد فعلت ما استطعت..

- (يأخذ كتفيه ويضمه بقوة) يا أخي الصغير..

قاعة المحكمة...

فرانسوا: ما الذي يثبت لنا أنك تقول الحق؟ ما الذي يثبت

لنا أن لوسيان أبرأك؟

- لا شيء... صدقوا ما تشاؤون.. (إلى إيلين) أتصدقيني

يا إيلين؟ هيه؟

- إنني أصدقك..

ويتبادلان النظرات العميقة، فيختفي كل الموجودين إلا

منهما الاثنين فقط.. ونسمع صوت فرانسوا يردد..

- رفعت الجلسة..

ومن جديد يتدافع الجمهور إلى الخروج وينسحب المحلفون

للمداولة، ويبقى بعض المتفرجين في أماكنهم وجان في مكانه

واقفاً، وإيلين تقترب منه مضطربة، فيسألها جان..

- أتصفحين عني؟

- إنني أصدقك.. أصدق كل ما قلته..

- لم أكن أتمنى ذلك إلا قبل موتي..

- (بيأس) لماذا لم تقل هذا من قبل؟ لماذا لم تقل أبداً أنك

كنت تحبني؟

تاريخ حياة طاغية

- كنت أعتقد أنني كنت أخيفك.. أحبيبك حبًا شديدًا.. من أول يوم..

ونتألق عينا إيلين بالدموع ونقول:

- وأنا يا جان أحبيبك يوم أن رأيتك، وكان الخطأ خطئي
لأنني كذبت على نفسي كبرًا.. لأنني أحبيبك ولكنك
كنت تخيفني، فقد كنت أجذك أقوى وأقوى مما يجب.
أما لوسيان فكان مثلي وشبيهي، وتزوجته بدافع
الجبين، وخيل إليّ أنك لست في حاجة إلى أحد،
وأردت أن أتحداك. سامحني أنت أيضًا..
- إيلين!

ويهم بالكلام لكن المحلفين يعودون ويدخل الجمهور بهرجه
مرة أخرى فيفترق جان وإيلين ويعود كل منهما إلى مكانه وما
يزالان ينظران إلى بعضهما..

وينهض رئيس المحلفين فيسكت الجمهور بإشارة من يد
فرانسوا، ويعلن قائلًا:

- لقد وجدت هيئة المحلفين المتهم مذنبًا بالنسبة إلى
جميع التهم الموجهة إليه.

ويجلس رئيس المحلفين فينطق فرانسوا بالحكمة بكلمة واحدة..

- الإعدام..

ويصفق الجمهور ويهتف، ثم ينتهي كل هذا سريعاً ويسود الصمت، وينهض جان فيقف إلى يمينه ويساره حارسان يقودانه إلى نهاية القاعة، وتنهض إيلين تريد أن تلقي بنفسها على جان لكن فرانسوا يمنعها.. وعندما يمر جان بها يتسسم لها فترعق عليه..

- جان.. إني أحبك..

- شكرًا يا إيلين..

ثم يمضي بين الحارسين...

هكذا جاء في القصر...

السفير يحادث فرانسوا بأدب لكنه يهدده رغم ذلك وفرانسوا يستمع بوجه غاضب..

- إن حكومتي لا تتمنى أكثر من أن تقوم بينها وبين

حكومتكم علاقات ودية، على أنها قد كلفتني أن

أحذركم من أنكم إذا أمتم البترول ونزعت يد رعايانا

تاريخ حياة طاغية

عن ممتلكاتهم فإن حكومتي ستعتبر ذلك منكم بادرة
عداوة وإعلان حرب..

- لكن ليس لحكومتم أن تتدخل في شؤوننا الداخلية..
- مهلاً يا صاحب الفخامة.. هل أذكركم بأن بلادكم
صغيرة وبلادي كبيرة جداً. (صمت لفترة) إن
حكومتي تنتظر إجابة صريحة..
- لن نمس امتيازات البترول..
- (ينحني بابتسامة ساخرة سخيفة) لم نكن ننتظر أقل من
هذه الحكمة يا صاحب الفخامة..

وينسحب السفير فيدخل الخادم ويتجه إلى فرانسوا قائلاً:

- إن وفدًا من عمال البترول ينتظر مقابلتكم يا صاحب
الفخامة؟

- انتظر.. أعطني كأسًا من الويسكي..

فيملأ الخادم الكأس ويفرغه فرانسوا مرة واحدة ثم يشير
إلى الخادم بسحنة مقلوبة..
- أدخلهم...

ختام

تاريخ حياة طاغية

هذا الكتاب من أفضل وأرقى وأحسن الكتب في مجال الكتابة للسينما، وهي فن وأدب عالٍ، وهي سيناريو سياسي أخلاقي فلسفي من الكتب التي لا بد أن تُقَتَّنَى وتُدرَس بتمعن. والحرف السينمائية فيها عالية علواً كبيراً، وسارتر كما هو كاتب مسرحي وكاتب فلسفي، فهو كاتب قصة، وأدبه من الآداب العالية Sublime، وهذا العلو يتمثل في سيناريو فيلم "تاريخ حياة طاغية" وعنوانه l'Engrange أي الاشتباك، ولكنني غيرت الاسم إلى موضوع السيناريو نفسه، فهو عن حياة طاغية، بدأ مناضلاً إلى أن انتصرت الثورة وتبوأ الحكم، فتحول من أجل المنصب والحياة المرفهة إلى عميل للاستعمار الأمريكي، غير أن بلاده لا تعذر الأبطال، ومثلما أخرجه بطلاً في يوم من الأيام، فإن آخرين يتخرجون بحكم الأحداث، وأثناء ذلك تكون الاشتباكات والتدخلات والارتباطات، وما نسميه الآن باسم الثورة الخلّاقة، وهي خلّاقة بمعنى ولادة، والشعوب لا تموت، والطفيان دائماً إلى زوال ونهاية، إن عاجلاً أو آجلاً، كما هو الآن في بلادنا العربية والإسلامية، وفي مصر الآن.

المترجم



MADBOULY BOOKSHOP

مكتبة مدبولي

6 Talat harb SQ. Tel:25756421

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت ٢٥٧٥٦٤٢١

www.madboulybooks.com - info@madboulybooks.com